

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عمار تليجي الأغواط

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي



مذكرة ماستر

الطالب(ة): قرزو وهيبة

ميدان : اللغة والأدب العربي

شعبة : الدراسات الأدبية

تخصص : أدب عربي قديم

شعر العلماء

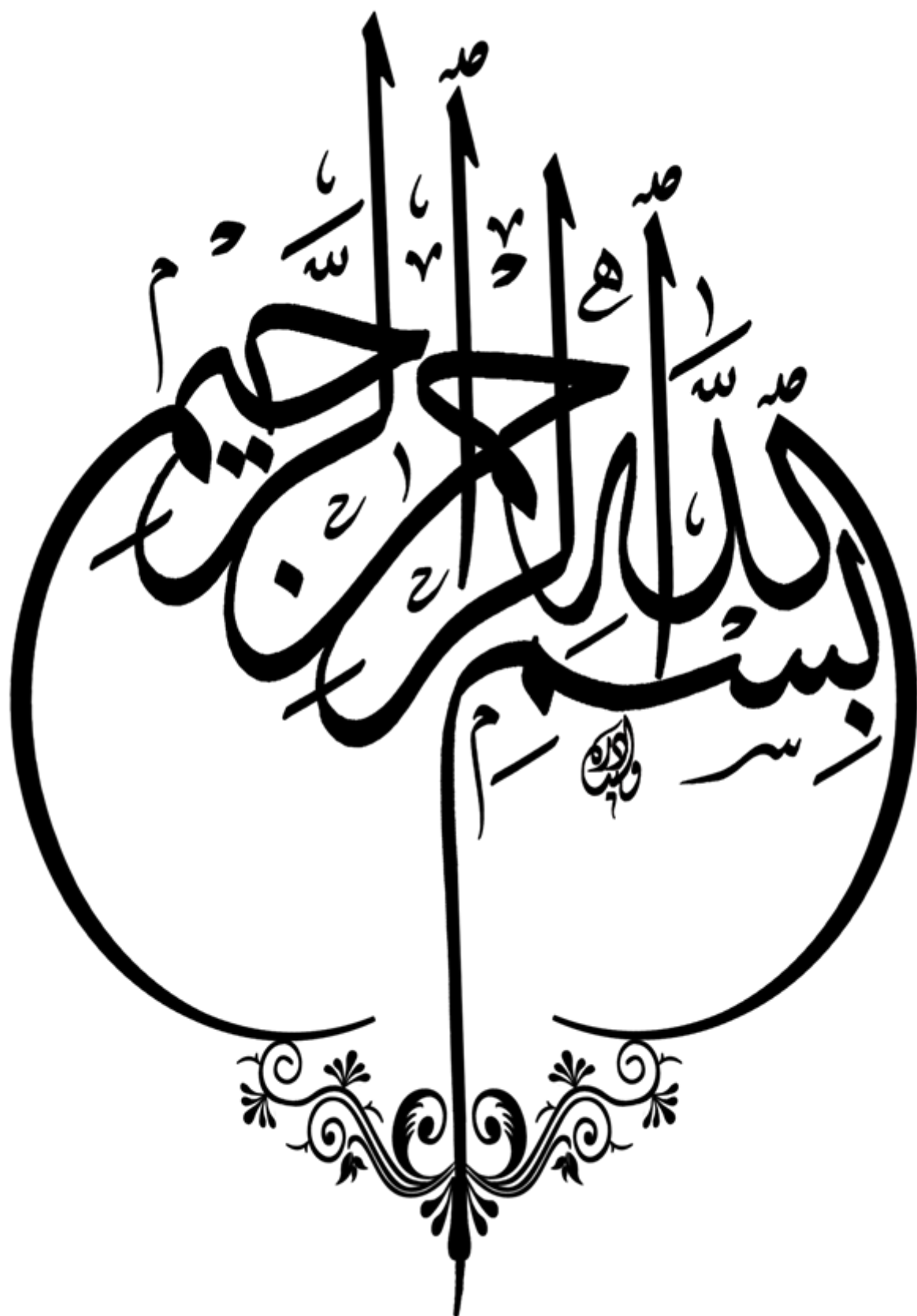
عند الشيخ محمد الخضر حسين الجزائري

مقاربة وصفية

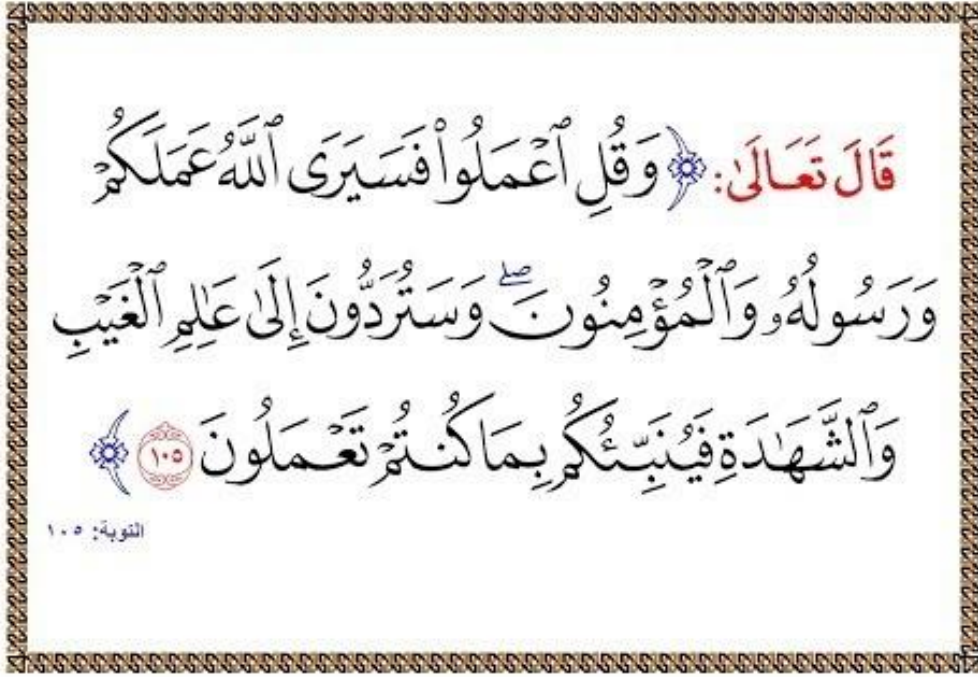
أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الصفة
إبراهيم شعيب	أستاذ التعليم العالي	رئيسا
أبو بكر مرزوق	أستاذ محاضر (أ)	مشرفا ومقررا
لخضر الذيب	أستاذ محاضر (أ)	مناقشا

السنة الجامعية : 2019-2020



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



صدق الله العظيم

شكر و عرفان

قال الله تعالى:

"رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي

بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (19) " سورة النمل

فالحمد لله عز وجل أولاً وآخراً ... ظاهراً وباطناً.. على ما جاد به وأنعم من

إكمال هذا البحث

وإذا كان الفضل يجب أن ينسب الى أهله وإذا كان الاعتراف بالجميل واجباً

في الاعناق يجب أن أقدم شكري

الى استاذي المشرف الدكتور " **مرزوق أبو بكر** "

كما أقتد بخالص الشكر والامتنان الى أعضاء اللجنة المناقشة كما أشكر من ساعدتني في انجاز هذا

العمل معي أختي " **سمية** "

كما أشكر **الوالدين الكريمين** على ما بذلاه من نصح وتشجيع لمواصلة دراستي خاصة أبي فجزاه الله

خير الجزاء.

هذا وقد بذلت جهدي في سبيل اخراج هذا البحث في صورة مرضية فإن كان يفتقر للكمال فهذه سمة

العمل الانساني، وإن كان به شيء من الحسنات فهذا من توفيق الله سبحانه وتعالى عليه توكلت وإليه

أنيب



إهداء

إلهي لا يطيب الليل إلا بشكرك ولا يطيب النهار إلا بطاعتك ..
ولا تطيب اللحظات إلا بذكرك ... ولا تطيب الآخرة إلا بعفوك
ولا تطيب الجنة إلا برؤيتك ** الله جل جلاله **

إلى من بلغ الرسالة وأدى الأمانة .. ونصح الأمة .. إلى نبي الرحمة سيدنا
سيدنا *محمد صلى الله عليه وسلم*

إلى من كلله الله بالهبة والوقار .. إلى من علمني العطاء بدون انتظار
.. إلى من أحمل اسمه بكل افتخار *عبد المالك قرزو*

أرجو من الله أن يمد في عمرك لترى ثمارا قد حان قطافها بعد طول
انتظار وستبقى كلماتك نجوم أهتدي بها في الليل والنهار
إلى أمي *فاطمة* أطال الله في عمرك يا أطيّب امرأة في الكون

إلى الجدة *عائشة قديم*

إلى أخي الصغير *عبد الله*

إلى الأخوات *نعيمة وعولة وسمية خاصة* التي طالما وقفت الى جانبي

إلى الزملاء *محمد مختاري* شكراً لمواقفك النبيلة معي والزميل *سمير تناح*

إلى أعز شخص *بشير حجاج*

إلى صديقة الطفولة *أمال سويسى* هي سطور كثيرة تمر في الخيال

ولا يبقى لي في نهاية المطاف إلا القليل من الذكريات

وهيبة



مقدمة

مقدمة:

ابتدأ الشيخ محمد الخضر حسين "حياته الأدبية شاعرا قبل أن يكون ناثرا؛ حيث نجده في آثاره الشعرية الأولى أكثر اهتماما بالحياة العامة، وأميل الى التجديد، لكنه سرعان ما انقلب الى النثر، يخوض في قضايا الدين والفكر، والحياة والمجتمع، تاركاً للشعر بعض المناسبات الخاصة، والجوانب الأكثر اتصافاً بالعاطفة والوجدان. ولعلّ انصراف الشيخ إلى علوم الدين، وتبحّره في مصطلحاته وتمكّنه من مناهجه وطرائقه قد بدا سمة ظاهرة في تفكيره وفي أسلوبه، وفي طريقة كتابته الإنشائية، وبدا أثر ذلك على كتاباته الأدبية في أغراضه الشعرية وموضوعاتها وعلى لغته الشعرية وأساليبها البيانية، وصوره العقلية، حيث أصابه بعض ما يصيب "شعر العلماء"، وهو الرجل العالم بجدارة.

كان من أسباب اختيار الموضوع: المشاركة العلمية في مشروع الأستاذ الفاضل: أبو بكر مرزوق، حول شخصية الشيخ العالم الأديب: محمد الخضر حسين الجزائري، الذي صرف إليه الأستاذ كلّ جهده، من خلال إشراك طلبة الماجستير. وكانت الفرصة مواتية حين يجد الطالب موضوعاً محدداً، ومشرفاً مرافقاً للطالب في كلّ مراحل البحث، ومرشداً معيناً قريب منه شاركه همّ الموضوع وتفصيله، وهذه الظروف، ستكون مساعدة - بلا شك - في الإقدام على البحث بشجاعة وثقة، وفضول للتعرف الى هذه الشخصية التي تكاد تكون مجهولة عند الكثير من الطلبة، والإلمام بشيء من تراث هذا الشيخ الجليل: اللغوي والأديب والفكري والديني.

ومن خلال هذه الدوافع تتجلى إشكالية البحث، التي تتناول "أدب العلماء"، والظواهر الأسلوبية العلمية التي تتسرّب إلى أدبهم (الشعري)، من خلال تناول هذه الظاهرة عند الشيخ الخضر حسين، وهو العالم المتبحر، في شعره، وفي موقفه النقدي من هذه الظاهرة العلمية الأدبية.

وعليه، فإنّ من أهداف البحث: الذي سنحرص على تحقيقه في هذا البحث هو:

- محاولة المشاركة الجادة في مشروع الأستاذ "أبو بكر مرزوق"، المتعلق بهذه الشخصية.
- كشف الحجاب عن شخصية محمد الخضر حسين؛ هذه القامة الجزائرية المغاربية العربية الإسلامية الفذة المغمورة.
- التعرف الى شخصية محمد الخضر، من خلال التعرّف إلى نشاطه العلمي والأدبي (الشعري) والنقدي.
- تناول شعر العلماء والإمام ببعض خصائصه. مقارنة هذه الظاهرة عند الشيخ الخضر بوصفه عالماً شاعراً، ثمّ موقفه من شعر العلماء.

وكان المنهج الوصفي هو المعتمد في دراستنا، وقد اقتضت هذه الأهداف تصميم خطة بحث رأينا أن تتحدّد عناصرها فيما يلي:

مدخل: تناول شخصية الشيخ محمد الخضر الحسين "الجزائري" محور البحث

الفصل الأول: تناول موقف الشيخ الخضر من شعر العلماء، وقام غل مبحثين:

المبحث الأول: النقد عند الشيخ محمد الخضر حسين

المبحث الثاني: شعر العلماء عند الشيخ محمد الخضر حسين

الفصل الثاني: تناول نماذج لشعر "العلماء" عند الشيخ محمد الخضر حسين، وقام على مبحثين:

المبحث الأول: تراجم (الأدباء الشعراء) عند الخضر حسين

المبحث الثاني: تراجم (العلماء الشعراء) عند الخضر حسين

الخاتمة: عرض نتائج المقاربة

أمّا مصادر البحث، فلعلّ أهمّ مصادره: موسوعة الاعمال الكاملة للشيخ محمد الخضر الحسين، إلى جانب مراجع قريبة تناولت شعر العلماء، أو تناولت أعمال الشيخ الخضر، كما تدلّ عليها قائمة ومصادر بحثنا. وتبقى صعوبات الدراسة قائمة؛ إذ لا يخلو أي بحث من مصاعب ومتاعب على رأسها: قلة المراجع المرتبطة بشعر العلماء، وضيق الوقت المحدّد لدراسة الموضوع، إلى جانب عسر التواصل مع الأستاذ المشرف لوضعيته الصحيّة، التي نسأل الله أن يشفيه ويعافيه، إلى تعطلّ الجامعة، والمكتبة الجامعية مع الظرف الاستثنائي والصحي، الذي تمرّ به الجزائر، ممّا ضيّق الخناق على سير البحث.

في خاتمة هذه المقدمة، نتوجه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ المشرف، الدكتور (مرزوق أبو بكر)، على مرافقتنا في رحلة هذا البحث، على الرغم من ظروفه الصحيّة، وعلى مشاركته الفعلية في إضافة كثيرا من مادة البحث، وإشرافه الشخصي على تصويب لغته. فشكرا على كل ما أسداه لنا من أجل إنجاز هذه المذكرة، سائلين الله أن يمتّع بالصحة والعافية ويزيد من علمه، ويمنحه الإخلاص في العمل..

آمين.



شخصية الشيخ محمد الخضر

الحسين "الجزائري"

مدخل: شخصية الشيخ محمد الخضر الحسين "الجزائري"

ولد الإمام محمد خَضِرُ حسين - رحمه الله تعالى - في مدينة (نَقْطَة)؛ من أعمال الجريد بجنوب القطر التونسي في 26 رجب سنة 1293هـ / 16 أغسطس 1876م. واسم الشيخ: (محمد بَلْخَضِرُ بن الحسين)، ابن الشيخ الصوفي المشهور: (علي بن عمر الطولقي)، المتوفى في 1258هـ / 1841هـ، غير أنه، لما توجه إلى المشرق، حُذِفَ عماد كنيته "ابن" من اسمه، على الطريقة المشرقية، فغلب عليه (الخَضِرُ) عوضاً عن (خَضِرُ). وأصل عائلته من أولاد سيدي (علي بن عثمان الإدريسي الحَسَنِي)، المتوفى في القرن الثامن الهجري بمنطقة (الدوسن)، من قرى بلدة (طولقة)، نواحي مدينة (بسكرة)، وهي واحة من واحات الجنوب الجزائري. أما أصل والدته (حليمة السعدية)، فمن أسرة جزائرية أيضاً، وهي كريمة الشيخ الصوفي (مصطفى بن عزوز)، مؤسس زاوية (نقطة)، وأبو جده لأمه، العالم الفاضل (محمد بن عزوز) المتوفى في 1233هـ / 1817م، وخاله العلامة الفقيه (محمد المكي بن عزوز) 1270هـ / 1334هـ / 1854م / 1915م، وهو من كبار العلماء الصالحين، الذي كان موضع إجلال وتقدير من رجال الدولة العثمانية¹.

هاجرت عائلة الإمام (محمد الخضر) إلى (نقطة) التونسية نظراً لما تعرضت له من اضطهاد من قِبَل الاستعمار الفرنسي آنذاك، كون العائلة الماجدة رفعت راية الجهاد عالية خفاقة، وكان من أبنائها بطل المقاومة الوطنية الفارس المغوار (الحسن بن عزوز) المتوفى في 1263هـ / 1846م، الذي ولاه الأمير (عبد القادر الجزائري) الخلافة على منطقة (الزيبان) ببسكرة الجزائرية.

ونشأ الإمام محمد الخضر حسين، بين أحضان أسرة كريمة تعزز بسجل يحفل بالأعجاز الزاهرة، والبطولات النادرة، بما أنجبت من علماء أعلام، ودعاة أتقياء. وفي زاوية جده سيدي (مصطفى بن عزوز)، تلقى أدوات العلم الأولى من كتابة وقراءة، ليعمل على حفظ القرآن الكريم بأحكامه وقراءته المتواترة، على شيوخ الزاوية، وعمره آنذاك لم يتجاوز التاسعة ربيعاً، إلى جانب حفظه الكثير من المتون اللغوية على يد والدته السيدة العالمة (حليمة السعدية)، التي كان لها بالغ الأثر في مساره التعليمي. كما تلقى دروس اللغة والفقه والسير على يد عدد من العلماء الأجلاء، منهم: خاله (محمد المكي بن عزوز) الذي كان يرعاه ويهتم به، وكان المحفز الأول الذي أخذ بيده، ودلّل له الصعاب، وسلك به طريق العلم. وفي سن مبكرة من حياته، بدأت علامات النباهة والتفوق

¹ - المختارات الخضرية من أعمال الامام محمد الخضر حسين الجزائري، شيخ جامع الأزهر، ص 13، محمد الطاهر العلاوي،

أبو بكر مرزوق.

وأمارات النبوغ والتميّز تظهر عليه من خلال ولعه بالشعر الفصيح وقرضه، ومطالعه بدائع النشر، وأجاداته في محاكاتها، وهو لا يزال صبياً¹.

في سنة (1305 هـ / 1888م)، وهو ابن الثانية عشرة من عمره، انتقل مع أسرته إلى تونس العاصمة؛ ليلتحق بجامعة الزيتونة، وكان هذا الصرح معلماً فكرياً وعلمياً عملاقاً، يناظر، في المغرب الكبير، صرح جامع الأزهر عند المشاركة، وبين أروقتة العتيقة، ومن مرحلة إلى مرحلة، ثابر الفتي واجتهد في تحصيل مختلف العلوم، وتقييد شتى المعارف التي كانت تُدرس؛ متلمذاً على يد كبار شيوخ الجامع ممن ذاع صيتهم، ونبغوا في العلوم الإسلامية، وتصدروا المشيخة عن جدارة ورسوخ قدم، فكان من شيوخه: الشيخ الجليل (عمر بن الشيخ)، الذي درس عليه التفسير، والشيخ (محمد النجار)، ثم الشيخ (سالم بوحاجب)، الذي كان يدرّس صحيح البخاري، فكان من أبرز شيوخه².

وفي سنة (1316 هـ / 1898م)، تخرج الطالب من جامع الزيتونة، متحصلاً على شهادة التطوّع، وهي شهادة تحوّل لصاحبها منصب التدريس والقضاء في المحاكم الشرعية، فراح يلقي دروسه في الجامع متطوعاً، لكنّه بقي ملتزماً على حضور مجالس العلم والأدب المختلفة.

وفي سنة 1321هـ/1903م ارتحل إلى الجزائر، أين زار أمهات مدنها، معرجاً على زاوية جدّه (علي بنعمر) بطولقة، وزاوية سيدي (المامل) بأبي سعادة، وفي السنة التي تليها عاد إليها، قاصد العاصمة (الجزائر)، فزار المدرسة الثعالبية، وتعرف إلى علمائها، حيث توطدت علاقته بهم، كما ألقى دروساً في المساجد والمكتبات، وحضر بعض الدروس الدينية واللغوية، وشارك في بعض المجالس الأدبية.

وفي شهر محرم سنة 1322م/ إبريل 1904م، أنشأ مجلة "السعادة العظمى"، وهي أول مجلة عربية نصف شهرية تظهر في تونس، غير أنّه لم يصدر منها سوى 21 عددًا، وقد كان الشيخ يكتب أغلب مقالاتها. وفي سنة 1324م/ إبريل 1905م تولّى قضاء مدينة (بنزرت) ومنطقتها، إلى جانب التدريس والخطابة بجامعها الكبير.. وفي سنة 1325 هـ 1907 م اشترك في تأسيس الجمعية الزيتونية.. ثم كلف بالخطابة في الخلدونية.

ولما قامت الحرب الطرابلسية في 5 شوال سنة 1329هـ/ 2 سبتمبر 1911م، بين إيطاليا والدولة العثمانية، وزحفت الجيوش الإيطالية فاحتلت طرابلس وبنغازي، وقف الشيخ بقلمه ولسانه إلى جانب الخلافة الإسلامية، داعياً الناس إلى مساندتها، وحين حاولت الحكومة احتواءه، ضمه إلى العمل في محكمة فرنسية رفض، ومعها بدأ الاستعمار الفرنسي سياسة بالتضييق عليه واتهامه ببث روح العداة؛ فلما استشعر الشيخ الخطر على

¹ - المرجع نفسه، ص14.

² - المختارات الخضرية، ص15 بتصرف.

حياته، غادر تونس إلى (الآستانة)، بحجة الرغبة في زيارة خاله السيد (محمد المكّي بن عزوز)، الذي كان يعيش هناك.. وكانت رحلته إليها عبر مصر ودمشق، لكنه يعود سريعا إلى تونس عبر (نابولي) الإيطالية، وقد نشر أخبار رحلته هذه في كتابه الرحالات¹.

ثم ما لبث أن عين عضوا بإحدى لجان التاريخ التونسي، لكن الأجواء الخانقة التي كانت تعيشها كلّ من تونس والجزائر، وما ترزح تحته من ظلم واستبداد حملته إلى الهجرة ثانية، فقصده دمشق، وفي طريقه إليها مرّ بالقاهرة، فلبث فيها مدة وجيزة، تعرف في أثنائها على كوكبة من العلماء الأعلام المناضلين، ورواد النهضة الفكرية والتنويرية، منهم: (الطاهر الجزائري) و(محب الدين الخطيب) و(أحمد تيمور باشا)، حيث توطدت علاقته بهم بعد ذلك.

وفي دمشق، عين مدرسا للغة العربية في المدرسة السلطانية سنة 1330هـ / 1912م، وخلال تلك الفترة، سافر إلى (القسطنطينية)، فوصلها يوم إعلان حرب البلقان الروسية العثمانية - ذي القعدة سنة 1330هـ / 1912م، فعاد إلى دمشق، ومنها سافر، بسكة حديد الحجاز، إلى (المدينة) المنورة سنة 1331هـ / 1913م، ثم عاد إلى دمشق، ومنها يعاود السفر إلى الآستانة، فيلتقي وزير الحربية (أنور باشا)، حيث اختاره محررا عربيا بالوزارة، وفي أثنائها، أتاحت له فرصة ملازمة عوامل الفساد التي تفتك بمقومات الدولة العثمانية، ومعايشتها عن قرب².

وفي سنة 1333هـ / 1915م، أرسله (أنور باشا) إلى العاصمة الألمانية (برلين)، في مهمة رسمية، فمكث بها تسعة أشهر، اجتهد خلالها على تعلم اللغة الألمانية، ومن برلين عاد إلى الآستانة ليجد خاله قد توفي، لكنه يحنّ إلى دمشق، فيتخلّى عن الوظيفة ويعد إليها. ومع وصوله دمشق، يعتقله السفاح (أحمد جمال باشا) الحاكم العام في سورية، في رمضان سنة 1334هـ يوليو سنة 1916م، فيلبث في السجن شهورا، حتى أنقذه منه تدخل وزير الحربية العثماني (أنور باشا)، فيغادر دمشق، بعد الإفراج عنه، إلى الآستانة، ليوفده (أنور باشا) ثانية إلى برلين سنة 1335هـ / 1917م، يلتقي خلالها بزعماء الحركات الإسلامية هناك، من مثل الشيخ (عبد العزيز الجاويش)، ثم عاد إلى الآستانة، ومنها رجع إلى دمشق، ليزاول التدريس في المدرسة السلطانية.

وفي سنة 1337هـ / 1918م، سافر من دمشق إلى الآستانة، وكانت الحرب العالمية الأولى في نهايتها، ومنها توجه إلى ألمانيا للمرة الثالثة، ف قضى بها سبعة أشهر، يعود بعدها إلى دمشق لتصادف عودته إقامة الحكم العربي، بقيادة (فيصل بن الحسين)، سنة 1337هـ / 1919م، لكن الاحتلال الفرنسي أحبط هذا الأمل العربي

¹ - المرجع نفسه، ص 16.

² - المرجع السابق، ص 17.

سنة 1337هـ/ 1920م، ففكر الشيخ في العودة إلى تونس بعد أن احتلت دمشق، لكن المطاف ينتهي به في القاهرة؛ فألقى بها عصا ترحاله الذي استمر عشر سنوات.

استوطن القاهرة سنة 1339هـ 1921م، حيث أعانه الاستقرار على الإنتاج العلمي المنتظم، والنشاط الإصلاحي الدائم، فوضحت معالم نهجه في التجديد والإصلاح، والتفت من حوله حلقات الطلاب والمريدين، وأخذت تأثيرات علمه وإصلاحه تلفت إليه أنظار العلماء وطلاب الإصلاح.. وفي سنة 1340هـ سنة 1922م، يتحنس بالجنسية المصرية، ثم يتقدم إلى امتحان (العالمية) بالجامع الأزهر، فحصل على إجازتها بجدارة، وأصبح واحداً من علماء الأزهر. ومع هذه الامتيازات المدنية، يبدأ حياته الجديدة بعمله في دار الكتب المصرية، حيث يضطلع، بقسمها الأدبي بمهمة تحقيق كتب التراث.

غير أن التحنس بالمصرية، والانخراط في هيئة كبار العلماء الأزهريين، والاشتغال بالبحث والتحقيق، لم يكن ليعوق الشيخ (الخضر) عن النهوض بمسؤولياته وواجباته كعالم مسلم ومجاهد عربي، ورعاية حقوق وطنه الأصلي (الجزائر) وموطن مولده (تونس)، ومن هنا، ينهض الشيخ سنة 1342هـ/ 1924م إلى تأسيس (جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية) لتحريك جهود أبنائها وتفعيلها في خدمة قضية التحرر من نير الاستعمار، ضمت في عضويتها، من الجزائر: الفضيل الورتلاني، والبشير الإبراهيمي، ومن تونس: الحبيب بورقيبة.

وعندما أصدر الأزهر الشريف مجلته التي بدأت باسم (نور الإسلام) سنة 1349هـ/ 1930م، عهد إلى الشيخ الخضر رئاسة تحريرها، فنهض بهذه المهمة من عددها الأول (محرم سنة 1349هـ/ 1930م)، حتى عدد ربيع الآخر سنة 1352هـ/ 1933م)، وعندما تكون ((مجمع اللغة العربية)) بالقاهرة سنة 1351هـ/ 1932م، وقد قام على عشرين عضواً عاملاً، كان الشيخ الخضر واحد من أقدم هؤلاء الأعضاء، ومن أكثرهم إنتاجاً، ولم يقف نشاطه الجمعي عند مجمع القاهرة، فقد اختير عضواً بالمجمع العلمي العربي بدمشق.

وعندما قامت الثورة المصرية في 23 يوليو 1952م، كان منصب شيخ الأزهر شاغراً، فوقع اختيار الثورة وحكومتها على الشيخ (الخضر) شيخاً للأزهر، وإماماً أكبر، وشيخاً للإسلام، ووجهها مشرقاً لهذه الجامعة العريقة. فنهض بالأمانة ما وسعته طاقته.. وعندما أحس بضغوط تطلب منه تنفيذ ما لا يرضى صمم على الاستقالة في 2 جمادى الأولى سنة 1373هـ/ 7 يناير سنة 1954م. ومنذ ذلك التاريخ تفرغ للبحث والكتابة والمحاضرة، حتى وفاه الأجل، فانتقل إلى جوار ربه مساء يوم الأحد 13 رجب سنة 1377هـ/ 3 فبراير 1958م، وقد شيعه العلماء والفضلاء والعارفون لفضله وعلمه ونضاله، ودفن بمقبرة (آل تيمور)، بناء على وصيته، بجانب صديق دربه العلامة (أحمد تيمور باشا)¹.

¹ - المختارات الخضرية، مرجع سابق، ص 18

جوانب من شخصيته: (الشيخ الخضر بين الصحافة والتأليف)

اجتمعت عند الشيخ الخضر ثلاث كفاءات: الصحافة والتأليف وقول الشعر. وسوف نشير سريعاً إلى نشاطه الصحفي، والتألفي، ونؤجل الكلام عن الشيخ الخضر الشاعر.

أولاً: الشيخ الخضر الصحفي:

لم يجعل الشيخ الخضر حسين من نشاطه الصحفي وسيلة لكسب لقمة العيش، ولم يتعامل معها معاملة احترافية، غير أنه اعتبرها وسيلة من وسائل النضال السياسي والاجتماعي والفكري، حيث اعتلى منابرها للتعبير عن أفكاره الإصلاحية، وآرائه الدينية، ومواقفه الفكرية، متحملاً تبعاتها التي تنتهي - في الغالب - بمصادرة ما يكتب، وتغريمه، وقد يصل الأمر إلى حبسه، أو تهديده بالقتل. غير أنه اصرَّ على هذا النشاط النبيل، متحملاً مسؤولياته، فلم يكذب يتوقف عن نشاطه منذ شبابه في تونس إلى شيخوخته بمصر، محمد الخضر يزود الجرائد والمجلات - التي كان يصدر بعضها - بمقالاته الجريئة المهادفة، وكتاباته الإصلاحية البناءة، فبالإضافة إلى ما كتبه ونشره من مئات المقالات والفصول والأبحاث في مختلف الجرائد والمجلات بتونس ودمشق ومصر أسس عدداً من المجلات، وساهم في تحرير كثير منها، ليغدو - في عصره - أحد الرواد في مجال الكتابة الصحفية في المغرب والمشرق.

ثانياً: الخضر حسين المؤلف

مؤلفات الشيخ محمد الخضر حسين كثيرة العدد، غزيرة المادة، متنوعة الموضوعات، جمعت بين بحوث في اللغة والأدب والنقد، إلى جانب كم من المحاضرات الدينية والاجتماعية والإصلاحية وبعض الكتب التي تناولت محاور فكرية وفلسفية وأدبية ونقدية، دون أن تغفل ما دونه من خواطر ورحلات ورسائل وتراجم أعلام لها قيمتهم التاريخية والعلمية والدينية والأدبية.

تراث الشيخ الخضر:

خلف فضيلة الإمام محمد الخضر حسين للمكتبة العربية والإسلامية تراثاً دينياً وفكرياً وعلمياً وأدبياً زاخراً، شهد على عقله المبدع، وفكره الراسخ المجدد. ومن مؤلفاته¹:

- رسائل الإصلاح: محاضرات ومقالات في المجال التربوي والأخلاقي.
- القياس في اللغة العربية: البحث الذي نال عليه المؤلف عضوية هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف.
- الخيال في الشعر العربي: هو كتاب نال شهرة واسعة في الأوساط الفكرية والأدبية.
- الحرية في الإسلام: محاضرة ألقاها في نادي قدماء المدرسة الصادقية.

¹ - المختارات الخضرية، مرجع سابق، ص 21.

- بلاغة القرآن: بحوث ودراسات تتعلق بـ "نقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية" و"رأي في تفسير القرآن" و"المحكم والمتشابه في القرآن الكريم".
- الرحلات: دَوَّن فيها رحلاته خارج الديار التونسية.
- محمد رسول الله وخاتم النبيين: مقالات حول السيرة النبوية العطرة.
- ديوان خواطر الحياة: وهو من الشعر الراقي الذي يسمو بالأخلاق الكريمة.
- السعادة العظمى: مجموعة مقالات نشرها المؤلف في أول مجلة السعادة العظمى بتونس
- الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان: مباحث دينية في أصول الدين، وأصول الفقه، والأحكام العملية، والفتاوى.
- محاضرات أدبية: مجموعة من المحاضرات كان قد ألقى بعضها في محطة الإذاعة بالقاهرة، ونادي جمعية الهداية الإسلامية، ونشرت في العديد من المجالات الأدبية.
- تراجم الرجال: تراجم مجموعة من أعلام الإسلام النبلاء.
- أحاديث من رحاب الأزهر: أحاديث الإمام عمّن اعتلى مشيخة الأزهر الشريف، وقد نشرت في العديد من الصحف والمجلات.
- دراسات في الشريعة الإسلامية: مجموعة أخرى من المقالات نشرها في مجلة "لواء الإسلام"، التي كانت تصدر عن هيئة مشيخة الأزهر.
- نقض كتاب في الشعر الجاهلي: فند فيه أغلاط الدكتور طه حسين حين أصدر كتابه ((في الشعر الجاهلي)).
- نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم: فند فيه كتاب ((الإسلام وأصول الحكم)) للقاضي الشرعي الأزهري "علي عبد الرازق" ودعواه الباطلة.
- الهداية الإسلامية: مقالات كان ينشرها في مجلة "الهداية الإسلامية"، التي كان يتأس تحريرها.
- تونس وجامع الزيتونة: كتاب يتطرق إلى الحركة الفكرية في جامع الزيتونة العريق، مع تراجم بعض الفقهاء والأعلام التونسيين.
- حياة اللغة العربية: يضم بحوث في مجالات اللغة والنحو، نشر بعضها في مجلة المجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- أسرار التنزيل: وهو تفسيره لبعض القرآن الكريم، نشره في مجلة "لواء الإسلام" التي كانت تصدر بالقاهرة، وكان رئيساً لتحريرها.
- الدعوة إلى الإصلاح: وهي مقالات في المجال الإصلاحي والتنويري، طبعت في حياته.

- حياة ابن خلدون: كتاب من الحجم الصغير يتطرق إلى جوانب هامة من حياة العلامة (عبد الرحمن ابن خلدون) وفكره.

إلى جانب العديد من التحقيقات على هوامش الكتب، والمؤلفات المتفرقة، والبحوث القيمة التي نشرت بين الصحف والمجالات العربية¹.

¹- المختارات الخضرية، المرجع السابق، ص 13-23



الفصل الأول

موقف الشيخ الخضر

من شعر العلماء

المبحث الأول: النقد عند الشيخ محمد الخضر حسين

الشعر فن من الفنون المرتبطة بالأدب، نجد نماذج منها منذ عهد الجاهلية وصدر الإسلام، وأما تخصيص النقد بالتأليف، فقد ازدهر منذ العصر العباسي وما لحقها من العصور الأندلسية والمغربية. فقد ألف عبد الله بن المعتز (ت. 296هـ) في نقد شعر أبي تمام، وألف محمد بن طباطبا العلوي (ت. 322هـ) كتاب "عيار الشعر"، ولف قدامة بن جعفر (330هـ) كتاب "نقد الشعر". ونجد عند أهل الأندلس كتباً عريقة في النقد أشهرها كتاب "العمدة" لابن رشيق القيرواني، وكتاب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" لحازم القرطاجني.

ولم يتوقف النقاد - في العصر الحديث - عن إصدار كتبهم النقدية، مثل كتابة "الوسيلة الأدبية" للحسين المرصفي، أو ما كان يكتبه العقاد في مجلة "الديوان"، وميخائيل نعيمة في كتاب "الغريال"، وغيرها. غير أننا نجد نظرات نقدية ناضجة عند علماء مغمورين تناولوا قضايا النقد والأدب والشعر من أمثال الشيخ محمد الخضر حسين الجزائري، الذي تحدث عن النقد ومسائله، كما تكلم عن النقاد والعملية النقدية والذوق النقدي، بل مارس النقد مع النصوص الأدبية، وفي موضوع التاريخ الأدبي. فمن أمثلة كلام الشيخ الخضر في المسائل النقدية كلامه عن وجوه النقد حيث يتناول النقد اللفظي، والنقد المعنوي. يقول الشيخ الخضر في (النقد اللفظي):

"الألفاظ بمنزلة الظروف؛ تنقل المعاني من نفس إلى أخرى، فيحسن أن تكون على قدر المعنى الذي قصد إلى نقله.. والألفاظ للمعاني مثل الثوب للبدن.. وكذلك الألفاظ؛ قد تفصل على قدر المعنى، ولكن الذوق يمجها لتنافر حروفها، أو تحافي كلماتها، أو تخاذل نظمها، أو انحرافها عن هيئة وضعها. ونقد اللفظ، إما أن يعود إلى "المفرد"، وإما أن يعود إلى "التركيب". ومما يعود إلى "المفرد" استعماله في غير معنى صحيح، كما عابوا قول المتنبي:

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى ** عدواً له ما من صداقته بدُّ

فإن الصداقة المحالة، وهي إصفاء المودة، والانسان لا يضطر إلى أن يصاحب عدوه، أو يحض له الودّ، وإنما تضطره الحال إلى مداراته، وذلك ما يعنيه الشاعر، ومقتضى هذا المعنى أن يقول: "ما من مداراته بدّ". ويعاب بعض مفردات البيت لمخالفتها للهيئة التي بناها عليه الواضع؛ ومن أمثلته: قول (ابن زمرك) في بعض قصائده:

يا ابن الخلائف من بني نصرٍ ومن ** حاطوا ذمار الملة السمحاء

إذ لم يرد في السماحة صيغة "فعلاء"، فلا يقال: سمحاء وإنما يقال: ملة سمحة؛ أي: ليس فيها حرج ولا ضيق"¹.

ويتكلم الشيخ الخضر في النقد المعنوي، فيقول:

"مثلُ الشاعر في صنع المعاني مثلُ صانع الصور المحسوسة وإذا كانت لا تشهد لصانع الصور بالإصابة إلا أن يعرض عليك الصورة مطابقة لحالتها الواقعة، كذلك الشاعر لا تعده مصيباً في تصوير المعنى إلا أن يعرضه عليك سالماً من النقص، غير مثقل بزيادة ما لا فائدة منه، حسن الوضع، متلائم الأجزاء، واقعا في المقام الذي أوردته فيه موقع المناسب المقبول، ومن هنا، كان لنقد معاني الشعر وجوه مختلفة.

يدخل العيب على المعنى من جهة: الجمع بين أشياء غير متناسبة، وكثيراً ما يقع في هذا العيب من يقصد

إلى النوع المسمى بالمطابقة. ومما ذهب بعض النقاد إلى أن الشاعر جمع فيه شيئين غير متناسبين: بيت المتنبي:

أزورهم سواد الليل يشفع لي ** وأثنى وبياض الصبح يغري بي

فقد روي أنّ المعتمد بن عباد تباحث مرة مع جلسائه في هذا البيت، وقال: ما قصر في مقابلة كل لفظة بضدها، إلا أن فيه نقداً خفياً، وهو أن الليل إنما يطابق بالنهار، ولا يطابق بالصبح الذي هو من النهار. ومراد المعتمد: القدح في المطابقة بين الليل والصبح، وإن كان لذكر الصبح وجه هو أنّ المحبّ ينصرف من الزيارة عند المحبوب مع انفجار الصبح؛ خيفة الرقباء"².

إنّ من يتناول النقد عند الشيخ محمد الخضر حسين، يتناول هذه الشخصية من حيث هو ناقد وناقض. فقد ظهر للشيخ كتابان نقديان أحدهما في تاريخ الأدب هو كتاب "نقض كتاب (في الشعر الجاهلي) لطفه حسين، وكتاب في النقد السياسي هو كتاب "نقض كتاب (الاسلام وأصول الحكم) لعلي عبد الرزاق".

وقد أحدث الكتابان الجريئان ضجة إعلامية كبيرة، رافقتها كثير من الكتابات الأدبية والدينية والسياسية، التي جاءت - في معظمها - ناقدة ناقمة عليهما. ومن بين هذه الكتب كان كتابا الشيخ محمد الخضر حسين اللذان سبقا ذكرهما، حيث كشفنا عن عظيم مكانته العلمية، وشهرته بين الناس. ولعلّ موقف النقض الذي طبع كتابي الشيخ الخضر قد يلفت إليه الأنظار حين استعمل مصطلح (نقض)، الذي يفيد تهميش وتقويض ما جاء فيهما من أفكار ونظريات، ولم يستعمل مصطلح (نقد)، الذي يعني: تمييز الجيد من الرديء والحسن من القبيح.

¹ - محمد الخضر حسين: الخيال في الشعر العربي، ودراسات أدبية (موسوعة الأعمال الكاملة)، 7: ص 107.

² - نفسه، ص 111.

"لقد كان الشيخ الخضر يأخذ بالعقل، إلى جانب أخذه بالنقل، يتمثل منهجه في ردوده، ونقائضه، وتعقيباته، وتعليقاته بحيث يبدو اعتداده بمبادئ التفكير العقلي والاحتكام إلى أصول المنطق واضحاً في كثير من إنتاجه الديني والفكري والأدبي واللغوي.

"كان الشيخ الخضر يتمثل طريقة ابن تيمية، في النقد والردّ، والنقض؛ يكثر النقل عنه، ويتمثل طرائقه؛ فيوظف مصطلح (نقض) عوض (نقد) على طريقته.. ذلك أن الشيخ ابن تيمية يميل إلى استعمال هذا المصطلح في عنوانه بعض كتبه الفلسفية والكلامية والمنطقية، وله كتاب بعنوان (نقض المنطق) وآخر بعنوان (نقض أساس التأسيس والتقديس). ولم يقف الشيخ الخضر عند حدود التأثر بالمصطلح، ومجازاة ابن تيمية في عنوانه الكتب والرسائل، بل تجاوزه إلى الاستفادة من آثاره الفكرية، حيث كان يرجع إلى أفكاره كثيراً، ويسلك سبيله"¹.

نموذج من نقوده:

امتلك الشيخ محمد الخضر حسين ملكة نقدية، كانت ثمرتها موقفه النقدي الحازم على كتابين صدرا في عصره تعرضا إلى مسائل حساسة جدا بالتراث الإسلامي والأدبي للعرب، حيث تناول الكتاب الأول أسس الحكم في الإسلام، وهو كتاب (الإسلام وأصول الحكم)، لعلي بن عبد الرزاق، وتناول الكتاب الثاني مسألة الانتحال في الشعر القديم، وهو كتاب (في الشعر الجاهلي) لطف حسين، حيث اضطلع الشيخ الخضر "بالردّ عليهما ردّاً بليغاً يستند على كلّ مقومات المحاجة المنطقية، والتناول الموضوعي الصارم. لكن براعة الإمام الناقد تتجلى في كتابه (الخيال في الشعر العربي)، الذي قد يعدّ أول دراسة منهجية مستقلة، تناولت موضوع الخيال، وخصوصيته في الشعر العربي، حيث تظهر سعة اطلاعه، وحضور محفوظه، وحسن ترتيبه، ووضوح عرضه، وقرب تناوله، واستثمار منجزات العلوم المجاورة، مثل (علم النفس)، في تقرير بعض مسائله، وبيان دور الخيال الفني في التربية الذهنية النفسية، والاجتماعية الأخلاقية، والذوقية الجمالية"². وسوف نعرض للكتابين الأخيرين بشيء من التفصيل.

أولاً: نقض كتاب الدكتور طه حسين (في الشعر الجاهلي)

حين نشر الدكتور طه حسين كتابه "في الشعر الجاهلي"، الذي جلب له الشهرة والمتاعب معاً، تصدى للرد عليه الشيخ الخضر حسين، الذي كان يفوق الدكتور طه حسين علماً وقدرة، كما كان صاحب أسلوب قادر على الكتابة والنقد والعرض والتحليل، وكانت مكانته العلمية فوق مستوى الشبهات.

قال طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي):

¹ - بشير يوسف: استراتيجية الحجاج عند محمد الخضر حسين الجزائري (من خلال كتابه: "نقض كتاب "في الشعر الجاهلي" لطف حسين)، رسالة ماستر، جامعة الأغواط، السنة الجامعية: 2016-2017، ص: 66.

² - محمد الطاهر علاوي/ أبو بكر مرزوق: المختارات الخضرية، ص: 243.

".. ولندع هذه المسألة الفنية الدقيقة، التي نعترف بأنها في حاجة الى تفصيل وتحقيق أوسع وأشمل ممّا يسمح لنا به المقام في هذا الفصل إلى مسألة أخرى ليست أقلّ منها خطراً، وأن كان أنصار القديم سيجدون شيئاً من العسر والمشقة؛ لأنهم لم يتعودوا هذه الريبة في البحث العلمي، وهي أننا نلاحظ أن العلماء قد اتخذوا هذا الشعر الجاهلي مادة للاستشهاد على ألفاظ القرآن الكريم والحديث، ونحوهما، ومذاهبهما الكلامية. ومن الغريب أنهم لا يكادون يجدون في ذلك مشقة ولا عسراً، حتى إنك لتحسّ كأن هذا الشعر الجاهلي إنّما قدّ على قدّ القرآن والحديث كما يقدّ الثوب على قدر لابسه، لا يزيد ولا ينقص عمّا أراد طولاً وسعة. إذأ، فنحن نجهر بأن هذا ليس من طبيعة الأشياء، وأن هذه الدقّة في الموازنة بين القرآن والحديث والشعر الجاهلي لا ينبغي أن تحمل على الاطمئنان إلا الذين رزقوا حظاً من السذاجة لم يتج لنا مثله"¹.

فننظر إلى طريقة الشيخ الخضر حسين في عملية النقض التي تتمّ - شكلاً - بعرض الفقرة التي يريد مناقشتها بين ضفيريّتين، محدّداً صفحتها، ثمّ يعمد إلى عملية النقض، وهي طريقة بارعة في نقد النصوص، بحيث يجتمع نصان في صفحة واحدة، مما يبعث على الاطمئنان، ونحن نجد النصين ماثلين أمامنا، يضاف إليها أنّنا نكون كمن يقرأ كتابين في كتاب واحد.

يرد الشيخ الخضر :

"كانت سوق الأدب في البلاد العربية قائمة، وبضاعة الشعر نافقة، قرائح ترسل المعاني نظماً، وقلوب سرعان ما تحيط بها فهما، ويساعد القرائح على ما تصدر من شعر، والقلوب على ما تعني من بدائع، أن ليس هذا علوم كثيرة، وفنون شتى تتجاذب القرائح، ويذهب كلّ منها بنصيب من الفكر، أو يحوز ناحية من القلب، فعلى الباحث في تاريخ الأدب أن يدرس حال العرب، كأنّه يعيش بين ظهرائهم، ولا يتسرع إلى إنكار أن تصدر ربيعة أو قيس أو تميم في الشعر في عصر أكثر ممّا تصدر الشام أو مصر أو العراق في مثله.

على أنّ إقامة الشاهد في تفسير القرآن غير موقوف على الشعر الجاهلي، بل يتناوله العلماء من شعر من نشأوا في الإسلام؛ كالفرزدق وجرير، وعمر بن أبي ربيعة. ومن التفت في تاريخ الأدب - يمينياً وشمالاً -، ونظر إلى كثرة من نبت في البلاد العربية من الشعراء وعمر بن أبي ربيعة ومن الشعراء - جاهلية وإسلامنا-، عجب لفقدهم الشاهد لكلمة غريبة في القرآن، أو وجه من وجوه إعرابه أشدّ من عجبه لوقوع يدهم عليه كلّما نقبوا عنه، فمن النظر الخاسئ أن نحكم على هذه الشواهد بالاصطناع، وندخل إلى الحكم عليها من باب موازنتها للمستشهد عليه، بزعم أنّ هذه الموازنة منافية لطبيعة الأشياء (...). ثمّ إن كثيراً من الشواهد المعزّوة للجاهلية تجدها في المطولات التي يستحي المؤلف أن يقول: إنّها اصطنعت لأجل أن ينتزع منها شاهد على القرآن أو الحديث، وما لم

¹ - طه حسين: في الشعر الجاهلي، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة (تونس)، 1997، ص ص: 50، 51.

يكن من هذه المطولات، تجده وارداً في قصائد أخرى يصعب ادعاء أن تكون اختلفت لأجل ما تحتوي عليه من البيت المحتاج اليه في الاستشهاد¹.

ثانياً: الخيال في الشعر العربي

يخوض الشيخ الخضر في موضوع الخيال خوض متمكّن من هذا المفهوم بعدما ألمّ بموضوع من خلال مطالعته الواعية في كتب النقد التراثية الأصيلية، خاصة ما كتبه عبد القاهر الجرجاني، وحازم القرطاجني. قد اخترنا له مقطعا من كتابه القيم (الخيال في الشعر العربي)، يتناول فيه الفرق بين المعنى الحقيقي والمعنى التخيلي عند علماء البلاغة، ومن خلال التخييل يتكلم عن التخييل التحضيري والتخييل الابتكاري. يقوا الشيخ الخضر:

"ينقسم التصرف في المعاني على ما يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني: الى تحقيق وتخييل والفارق بينهما أن:

المعنى الحقيقي: هو ما يشهد له العقل بالاستقامة وتتضافر العقلاء من كل أمه على تقريره والعمل بموجبه كقول المتنبي:

لَا يَسْلَمُ الشَّرْقَ وَالرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى ** حَتَّى يُرَاقَ عَلَيَّ جَوَانِبِهِ الدَّمُ

فمعنى هذا البيت مما تلقاه العقلاء بالقبول، ووضعوه بمقدمة ما يتنافسون فيه من الحكم البالغة، ويستندون إليها في حماية شعوبهم، ومن الذي يجهل أنّ حياة الأمم إنما تنتظم بالوقوف في وجه من يتهافت به السفه على هدم شرفها والاستئثار بحقوقها.

أما المعنى التخيلي: هو الذي يرده العقل، ويقضي بعدم انطباقه على الواقع، إمّا على البديهية، كقول بعضهم:

لَوْ لَمْ تَكُنْ نِيَّةُ الْجُوزَاءِ حِدْمَتُهُ ** لَمَّا رَأَيْتَ عَلَيْهَا عَقْدُ مُنْتَطِقِ

فكلّ أحد يدرك لأول ما يطرق سمعه هذا البيت: أن الكواكب لا تنوي، ولا تنطق، ولا تخدم، وأن تلك النجوم المتناسقة في وسط الجوزاء مركبة فيها من قبل أن يصير الممدوح شيئا مذكوراً.

أو بعد نظر قليل، كقول أبي تمام:

لَا تُنْكِرِي عِطْلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغَيْ ** فَالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِي

¹ - محمد الخضر حسين: موسوعة الأعمال الكاملة (نقض كتاب في الشعر الجاهلي لطفه حسين)، جمع: علي الرضا الحسيني الحامي، دار النوادر، سورية - لبنان - الكويت، ط.1، 2010، 8:ص 149، 150.

تجد الشاعر قد نهي المخاطبة، في صدر البيت، عن إنكارها لفاقة الكريم، وفراغ يده من المال، فأخبر، في عجز البيت، بأنّ السيل لا يستقر على الأماكن المرتفعة، وهذا المعنى في نفسه صحيح، ولكنّ الفاء، في قوله: "فالسيل حرب"، أفصحت بأنّ السبب في عدم توقّف حطام الدنيا لدى الكريم، هو كون الماء، إذا وقع على الأماكن العالية لا يلبث أن ينحدر إلى ما انخفض عنها من وهاد وأغوار، وهذا إنّما وصل إلى الدهن بتخييل أنّ رفعة القدر بمنزلة المكان الحسي، وأنّ الماء الدافق ينساق إلى الرجل، فيقضي منه وطره، ثم يرسله - إن شاء - إلى بني الحاجات.

التخييل التحضيري:

تداعى المعاني بوسيلة التذكر، ثم تأتي المخيطة، فنتخب منها ما يناسب الغرض، وهذا العمل أي بمعنى (الانتخاب) يسميه علماء النفس تخيلاً تحضيرياً. تقتصر المخيلة عند الانتخاب على ما يدعو إليه الغرض حتى إنّها تتخيّل طائراً بغير جناح، كما قال الفتح بن خاقان:

وتركت قلبي للصبابة طائراً** تھفو به الأشواق دون جناح

التخييل الإبداعي:

بعد أن تنتخب المخيطة ما يليق بالغرض من العناصر، تتصرف فيها - بالتأليف - إلى أن ينتظم منها صورة مستطرفة ويسمى هذا التصرف: تخيلاً إبداعياً أو اختراعياً. ويجري هذا التخييل في التشبيه والاستعارة وغيرهما.

فالتشبيه قد تحذف أدواته، كما في قول النابغة:

فإنك شمس والملوك كواكب** إذا طلعت لم يبد منهن كوكبٌ

وعمل الخيال فيه هو: إحضار صورة المشبه به (الشمس والكواكب)، وإلغاء وجوه التباين بينها وبين المشبه به (الممدوح وبقية الملوك)، حتى يدعي اتحادهما، ويصحّ الإخبار بأحدهما عن الآخر، وبنى على هذا الادعاء: أن ليس للملوك مظهر، ولا تقوم لهم - أمام هذا الملك - سمعة؛ فإنّ الكواكب يتقلص ضوءها، ويغرب عن العيون مشهدها، عندما تتجلى الشمس في طلعتها الباهر¹.

¹ - محمد الخضر حسين: الخيال في الشعر العربي، ودراسات أدبية (موسوعة الأعمال الكاملة)، 7: ص 8-20.

المبحث الثاني: شعر العلماء عند الشيخ محمد الخضر حسين

شعر العلماء

العلم كالأدب متعة للروح، وغطاء للقلب، والعقل، وفيهما جمال قد يحلّ في اللفظ والعبارة والصورة أو في المعنى أو في الأسلوب والتسلسل والنظم¹.

ولا يختلف العالم عن الأديب لانطلاق كليهما من التفكير المنطقي ولا فرق بينهما إلا في قوة استعمال آلة العقل، إذ يبدو العالم قريب من الواقع المادي؛ ينطلق من المحسوسات المادية، ويعتمد على المعاينة والمشاهدة بحيث تبدو عملية التخيل عنده أقلّ منها عند الأديب، بل قد يصل الأديب إلى إبداع عوالم من خياله تتجاوز الظواهر الواقعية التي ينطلق منها العالم، بل قد يفوق تخيل الأديب تخيل العالم - في بعض الأحيان - حال الخيال العلمي الذي نجده في بعض أعمال الأدباء، والذي يعتمد عليه العلماء في ابتكاراتهم واختراعاتهم محاولة منهم في تجسيد هذا المتخيل علمياً وواقعياً.

وفي المقابل، إذا كان الأديب يتباهي في أدبه، بطرافة أفكاره، وبديع ألفاظه وبراعة صوره، وجمال إيقاع كلامه " أولسنا نجد في لغة العلم سحر البيان، وإعجاز الإيجاز، ونور الدقة؟ .. أوليس في أسلوبه من المتانة والكثافة ما قد يعزّ في غيره، وبجوار ذلك، ألسنا نلمس في العلوم جانباً وافراً من الخيال، بل ألم يكن العلم بنفسه باعثاً على تنمية الخيال.."².

وحين نتبّع أدب هذه الفئة (فئة العلماء)، من خلال تتبع الأغراض الشعرية التي نظموا عليها، نستخلص بعض خصائصهم الأدبية الفنية العامة منها:

- أنّهم طبعوا أفكارهم ومعانيهم بطابع متميز يقوم على التحليل والتفصيل والتعليل..
- أنّهم في مدحهم قلّما مدحوا الأمراء وذوي السلطان، ولم يكونوا يرغبون في الجاه والمال، وكانوا يميلون إلى مدح العلماء، من مشايخ وأساتذة، والإشادة بعلمهم ومؤلفاتهم. وهم لا يختلفون في رثائهم عن المدح حين ينعون ذهاب العلم والفكر، والفتنة والذكاء، والإخلاص في العمل.

¹ - محمد سويسبي: أدب العلماء في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس (البيروني وعمر الخيام)، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، 1977، ص ص: 7، 8.

² - المرجع السابق، ص 11.

- أنهم في أساليبهم قد عبروا عن كل ما كتبوا - شعرا ونثرا - متميزين بخفة الروح، وجمال اللفظ، وخصب المعاني، ودقة التصوير، مستعملين ما أمدهم به عصرهم من أجمل المحسنات البديعية، من: جناس وطباق وتورية واقتباس وتضمنين، على أنهم - أحيانا - أسقوا مبالغين، فوقعوا في الصنعة والتكلف¹.

- أن أدبهم يصطبغ بصبغة التشاؤم والصوت الحزين بسبب ما يحملون من كثرة السؤال عن الإنسان والمصير، والحياة والموت، وماهية النفس، وربما كان ذلك غرضاً جديداً نشأ مع العلماء، من خلال تناولهم موضوعات علمية أو فلسفية تشغل جلاً تفكيرهم بحيث تصبح محور كتاباتهم أو أشعارهم، حال الطبيب ابن سينا، وفخر الدين الرازي، وعمر الخيام والفلكي أبي الريحان البيروني..

- أن من سيماتهم الفنية العامة ميلهم إلى السهولة والبعد عن التكلف، وبساطة النظم لدرجة النزول به إلى النثرية. مثال ذلك قول أبي بكر بن زهر الطبيب الأندلسي، وهو يتكلم عن مصير كل حي:

تأمل - بحقك - يا واقفا	ولاحظ مكان دفعنا إليه
تراب الضريح على صفحتي	كأني لم أمش يوماً عليه
أداوي الأنام حذار المنون	وها أنا قد صرت رهناً لديه

ولا يخفى أن العلماء قد امتازوا بنثرهم العلمي الجميل - خاصة العلماء العرب - وبدقة ألفاظهم التي يستدعيها لغة العلم، ذلك ان الكتابة العلمية تستدعي ضبط العبارة، ودقة الفكر، وتحكيم المنطق، وترتيب المقدمات وتلك كانت صفة الكتابة عند البيروني وأسلوبه الذي لا محلّ فيه للحشو واللغو.. حيث يكون الكلام كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً، ولا محلّ في هذا الأسلوب للمجاز وللمعاني المشتركة، وللمتشابه وللتعابير الجوفاء².

وقد يجري في شعرهم مصطلحات العلم الذي يشتغلونه، كأن يجري معجم ألفاظ الفلسفة على المشتغل بالفلسفة، ومصطلحات النحو على من يشتغل بالنحو، ومثلها مصطلحات الفقه مع الفقهاء. فقد روي العلامة ابن خلدون قصة طريفة وقعت بين صاحب العلامة السلطانية بالدولة المرينية، وكاتب السلطان أبي الحسن المريني، وهو أبو العباس أحمد بن شعيب الجزنائي، فقال: أنشدت أبا العباس مطلع قصيدة أبي الفضل ابن النحوي (صاحب قصيدة المنفرجة المشهورة)، ولم أنسبها إليه، وهو قوله:

¹ - محمد سويسبي: أدب العلماء في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس (البيروني وعمر الخيام)، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، 1977، ص: 30-43.

² - المرجع نفسه، ص: 80.

- لم أدر، حين وقفتُ بالأطلال
- ما الفرق بين جديدها والباي

فقال لي على البديهة: هذا شعر فقيه. فقلت ومن أين لك ذلك؟ قال: من قوله "ما الفرق"، إذ هي من عبارات الفقهاء، وليست من أساليب كلام العرب¹.

ولو أخذنا مثالا على أدب الفقهاء، نجد هذه الطبقة على علاقة بلغة العرب وعلى إلمام بنحوها وصرفها وبلاغتها ومعجمها بحكم أنّ هذه العلوم هي أساس أدوات المعرفة الدينية والعلوم الشرعية، وتسمى عند الفقهاء (علوم الآلة)؛ كونها الوسائط التي يتوسّل بها لفهم النصوص الشرعية. لذلك كان علماء الفقه من أقرب الطبقات إلى طبقة الأدباء، حيث لا يوجد كبير فرق بين الطبقتين في جودة نظمهما للشعر، والبراعة في أغراضه ومعانيه، وأساليبه وإيقاعه، إذا ما استثنينا ملكة الشعر الفطرية أو (الموهبة الشعرية)، التي يميّز بها الشاعر عن ناظم الشعر سواء أكان الناظم من طبقة الأدباء أم من طبقة العلماء.

يصف الباحث المغربي أدب الفقهاء بقوله: "أدب الفقهاء مادة خصبة للدراسة.. فهو يشتمل على شعر وجداني من الطبقة الرفيعة، يعبر عن أعمق المشاعر الإنسانية.. ومنه شعر فلسفي يتناول مطالب النفس العليا، ويتحدث عن الروح وعالمها الفسيح، ومشكلة الوجود والحقيقة الأزلية، وما إلى ذلك، أمّا الأخلاق والآداب، فأدب الفقهاء هو منبعها الذي لا ينضب"².

وكثيرا من يقلّد الشعراء الفقهاء طريقة الأدباء في الأغراض الشعرية التقليدية، كالمدح والثناء، والفخر والهجاء، ولكن قد تظهر براعتهم في أغراض خاصة، مثل المديح النبوي، الذي تسمو فيه أرواحهم، وتصدق فيه مشاعرهم، ومثل الشعر التاريخي والقصصي لمعرفتهم الجمة بكتب التاريخ والأخبار والقصص، وشعر الزهد والتصوّف لاستعدادهم النفسي والروحي، إلى جانب الشعر التعليمي، الذي يظهر في المتون العلمية الفقهية، والشعر الأخلاقي التربوي الإرشادي، لتوفر المقاصد الإصلاحية والوعظية في تكوينهم الديني*.

موقف الشيخ الخضر من شعر العلماء:

حينما عرف النقاد الشعر، بأنّه كل كلام يحمل معنى جميلا، ويقوم على الوزن والقافية كانوا يشيرون إلى ما يميز الشعر عن النثر، وأنّ فارق الإيقاع في الشعر هو المؤثر الكبير لتقبل المعاني والأفكار. هذا الذي أشار إليه الشيخ الخضر بقوله: "ترتاح النفوس لسماع الشعر أكثر مما ترتاح لسماع النثر المساوي له في مرتبة البلاغة، ذلك أن الشعر يمتاز بالوزن والقافية. ولورود الألفاظ في جمل موزونة ومنتهية بقافية، وقّع تلذُّه النفس، زائد على ما تلذُّ

¹ - عبد الله كُتون: أدب الفقهاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 2014، ص: 8.

² - المرجع السابق، ص: 15.

من وقع الفصاحة والبراعة. ثم إنَّ الشاعر يطلق لخياله العنان، فيؤلف من المعاني التي يقع عليها الخيال صوراً شائقة ليس من عادة البلغاء إيراد أمثالها في منشور الكلام¹.

من هنا، تنافس الشعراء في أساليب الشعر، وابتعدوا عن أساليب النثر، مركزين على حسن اختيار الأوزان والقوافي، وابداع الصور البيانية المحركة للخيال والتخيّل، وحسن اختيار الألفاظ المناسبة الموحية بالقصد، وهي خصائص لا تتوفر عادة عند أهل النثر من الخطباء والكتاب - كما يقول الشيخ الخضر -.

لقد أدرك الشيخ الخضر - بهذه المعاني - أثر الشعر في تقويم السلوك، حين أشار إلى التفاعل النفسي بين الإنسان والشعر، واستجابة الإنسان الداخلية إلى ما يحمله كلام الشاعر من مضامين تدفع المتلقي إلى الاستجابة اللاشعورية لها بعدما يتمكن جمال الشعر من وجدانه. يقول الشيخ الخضر:

"إن كانت النفوس تبتهج لحسن صناعة الشعر، فإن ابتهاجها يجعلها تقبل على ما يعرضه عليها من حكمة، أو يسديه إليها من نصيحة، والشعر إما أن يعطي الحكمة في صراحة، كالبيت الذي قال فيه الأصمعي: إنه أبرع بيت قالته العرب وهو قول أبي ذؤيب الهذلي:

والنفس رغبةٌ إذا رغبتها
وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تقنُّع

والبيت الذي قالوا: إن العرب لم تقل بيتاً أصدق منه وهو قول الحطيئة:

من يفعل الخيرَ لم يعدم جوازيه . لا يذهبُ العرفُ بين الله والناسِ .

والبيت الذي قيل: إنه أحكم بيت قالته العرب وهو الآخر: للإمام علي

ولربما ابتسم الكريمُ من الأذى
وفؤأده من حرّه يتأوه

وإما أن تستفيد منه الحكمة من طريق غير صريح، كبعض الشعر الذي يقال في نحو المديح أو الحماسة..²

إنَّ هذا التأثير غير المباشر للشعر الذي يهذب النفس دون أن يكون مقصوداً من الشاعر - دائماً - هو أمر شائع جداً في شعر العرب، يصدر عن الشاعر الجاهلي كونه جزءاً من أخلاقه وسلوكه، ولأنَّ الشاعر القديم يتكلم في شعره وفق ما يمليه عليه العرف الاجتماعي وتفرضه القيم الأخلاقية عند العرب. يقول الشيخ الخضر:

1 - محمد الخضر حسين: الخيال في الشعر العربي، ودراسات أدبية (موسوعة الأعمال الكاملة)، 7: ص 90.

2 - المرجع السابق، ص 100.

"للشعر العربي أثر في تهذيب الأخلاق، بما يعطيه من الحكمة صراحة أو تلويحاً، وهو بعد هذا يثير العواطف الشريفة، فيبعث على نحو العفو والسماحة، وإخلاص الود والثبات في المواقف المحفوفة بالأخطار، قال معاوية بن أبي سفيان: اجعلوا الشعر أكبر همكم، وأكثر دأبكم فلقد رأيتني بصفين أريد الحرب لشدة البلوى، فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الأظنابة، يعني التي يقول فيها:

وقولي كلما جشأت وجاشت
ومكانك تحمدي أو تستريحي .

وعلى هذا الأساس، يلجأ الشعراء إلى توظيف الشعر في تقويم السلوك، وتربية النفس، والدعوة إلى الإصلاح. لذلك نجد الشيخ الخضر يدعو إلى التربية الأخلاقية بواسطة الشعر، فيقول:

".. وإذا كان الشعر العربي معدوداً من وسائل الإصلاح، فمن حق أبنائنا علينا أن نلقتهم أشعار بلغائنا، وأن نسلك بطائفة منهم طريقة التمرين على النبوغ في الشعر، ثم نختفي بمؤلاء النوابع ما رفعوا شأن الأدب العربي، وأدناوا للناس قطوف الحكمة"¹.

غير أنّ الشعراء لا يتساوون في فهم رسالة الأدب والشعر، ووظيفة الأدباء والشعراء، إذ كثيراً ما ينحرف الشعراء حين يستخدمون الشعر في خدمة أهوائهم، أو يحققون به مصالحهم الذاتية، أو مصالح الغير مثل الشاعر الذي يشن الهجوم على خصومه مستعملاً المهجاء اللاذع والسباب الفاحش دون مراعاة للأخلاق والأذواق العامة، ومثله الشعر الماجن الذي يدعو إلى الرذيلة - وإن كان ذلك من أجل التسلية أو إظهار البراعة للناس - فيكون قد ساهم في الفساد والإفساد.

لذلك نجد موقف العلماء من الشعر موقفاً سالباً، بسبب ما يحمله من انحراف وميل إلى العواطف والأهواء، والابتعاد عن رقابة العقل. ولقد ضرب لنا الشيخ الخضر مثالا عن بعض العلماء الذين تبرؤوا من الشعر حين رأى أنه يزري بالعلماء ويحط من قدرهم فقال في ذلك شعراً:

ولولا الشعرُ بالعلماء يُزري
لكنت اليومَ أشعرَ من لبيد

وعقب الشيخ على ذلك قائلاً:

".. ولكن الشعر في ذاته لا يزري بالعلماء، بل هو فن من فنون أدب اللغة، فمن تعلّق به، فقد ضم إلى أدبه أدباً. والشعر الذي يزري بالعلماء هو الشعر الذي يُقبل عليه الجاهلون، ويدعوهم إلى ما فيه خيبة وخسر، والذي يتيه بصاحبه في كل ناحية من الباطل، ومن يقول صاحبه مالا يصدر منه. وهو المشار إليه بقوله تعالى:

- 1 محمد الخضر حسين: الخيال في الشعر العربي، ودراسات أدبية (موسوعة الأعمال الكاملة)، 7: ص 101.

{وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ} [الشعراء: 224 - 225]..¹

ويشير الشيخ الخضر إلى مسألة يرى أنها مرفوضة عند كثير من العلماء، وهي مسألة التكتسب بالشعر، فيقول:

".. وفي الشعر خصلة أخرى تزري بالعلماء؛ أعني: اكتساب الرزق به، وهو قادر على الاكتساب بغيره من الحرف اللائقة، وهجاء من لا يجازيهم على مدحهم، حتى قال ابن الجزار²:

كان فضلي على الكلاب ومد صر ت أديباً رجوت فضل الكلاب

وإذا كان هذا الفريق من العلماء يرفض الشعر، أو يرى أنه يقلل من هيبة العلم والعلماء، فإن هناك من العلماء من رأى عكس ذلك، وأدرك أنّ الشعر في نفسه فن نبيل محبب إلى النفس والعقل معا، وأن الإنسان يبلغ بالشعر ما لا يبلغه بالنثر. وأنّ متعة الشعر لا تقدّر عند من يحسنون تذوقه.

يقول الشيخ الخضر:

".. وقد يولع العالم الكبير بالشعر البارع؛ كما فعل تقي الدين بن دقيق العيد عالم الإسكندرية، لما بلغته قصيدة (ابن خميس)، الشاعر التلمساني الذي يقول في طالعها:

عجباً لها أيدوق طعم وصلها من ليس يأمل أن يمرّ بها

فقام لها، وجعل يكرّرها المرة بعد الأخرى، ووضعها بمكان قريب منه إعجاباً بها.

وهؤلاء ينظرون إلى قول علي بن الجهم³:

وما أنا ممن سار بالشعر ذكره ولكنّ أشعاري يسيرها ذكرى

بل نجد من العلماء من يحاول نظم الشعر ولم يكن شاعراً - بالأصل - بل نجد من العلماء المحبين للأدب من ينظم شعراً يصل في رفته شعر الشعراء الحقيقيين. ويضرب الشيخ الخضر مثالا للعلماء الشعراء أو العلماء الذين يجمعون بين العلم والأدب بالقاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي الذي مدحه أبو العلاء المعري بقوله:

والمالكي ابن نصر زار في سفر بلادنا فحمدنا النأي والسفر

إذا تفقه، أحيا مالكاً جدلاً وينشر الملك الضليل إن شعرا

¹ - محمد الخضر حسين: موسوعة الأعمال الكاملة (الشعر البديع في نظر الأدباء، 7: ص 79]

² - محمد الخضر حسين: الخيال في الشعر العربي، ودراسات أدبية (موسوعة الأعمال الكاملة)، 7: ص 80.

³ - المرجع نفسه، ص 81.

يقول الشيخ الخضر: " .. ومن شعر القاضي عبد الوهاب قوله:

متى تصل العطاش إلى ارتواء إذا استقت البحار من الركابا
ومن يثني الأصاعر عن مراد وقد جلس الأكابر في الزوايا

وكالقاضي أحمد بن عمر الأرجاني؛ فقد كان فقيهاً أدبياً، وهو يقول:

اقرن برأيك رأي غيرك واستشر فالحق لا يخفى على الإثنين
المرء مرأة؛ تُريه وجهه ويرى قفاه بجمع مرأتين

ومثل القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني؛ فقد كان فقيهاً أدبياً؛ وهو القائل¹:

يقولون لي: فيك انقباض وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما .
يقولون: هذا مورد. قلت: قد رأى . ولكن نفس حر تحتل الظما .

ونجد من الناس من يحترم الشعر ويحمله إذا توفرت فيه شروط الشعر الجيد، في معانيه وألفاظه، وصوره، وإيقاعه، إلى جانب مقاصده النبيلة. يقول الشيخ الخضر:

"تسيغ النفس الشعر، فتأخذها هزة الارتياح، ولا تتمالك أن تعبر بقول أو تفعل ما يدل على إعجابها به. أنشد ابن الأعرابي أبيات أبي العتاهية التي يقول فيها:

واصبر على غير الزمان فإنما فرج الشدائد مثل حلّ عقال .

ثم قال لجليسه: هل تعرف أحداً يحسن أن يقول مثل هذا الشعر؟

وسمع الأصمعي أبيات نصيب التي يقول فيها:

ولا خير في ودّ امرئ متكاره . عليك ولا في صاحب لا توافقه .
إذا المرء لم يبذل من الود مثلما بذلت له فاعلم بأني مفارقه .

فقال: قاتل الله نصيباً ما أشعره.

وسمع ابن جني قول المتنبي:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم .

فقال: لو لم يقل المتنبي غير هذا البيت، لتقدم به أكثر المحدثين².

¹ - محمد الخضر حسين: الخيال في الشعر العربي، ودراسات أدبية (موسوعة الأعمال الكاملة)، 7: ص 81

² - المرجع نفسه 7: ص 82

وفي تراثنا العربي أمثلة لحكام علماء برعوا في تذوق الشعر، وربما كانوا في مرتبة النقاد لكثرة الشعراء المجيدين الوافدين على قصورهم، وحفظهم لما يقولونه. وقد ضرب الشيخ الخضر - مثالا على ذلك - بالخليفة العباسي هارون الرشيد. قال الشيخ الخضر:

"ويروى: أن الرشيد قال ليزيد بن مزيد: أتعرف من يقول فيك:

تراه في الأمن في درع مضاعفة لا يأمن الدهر أن يأتي على عجل

قال: لا يا أمير المؤمنين، لا أعرف قائله.

فقال الرشيد: قد بلغ هذا الشعر أمير المؤمنين، فرواه وأجازه، وأنت لا تعرف قائله؟! قائله هو مسلم بن الوليد.

وإعجاب الخلفاء والملوك والوجهاء بالقصائد، التي يمدحون بها، قد يكون من بلاغة الشعر، ويزيدهم طرباً أن يكون في ذكر مفاخرهم (...). فقد دخل ابن حاج الشاعر على المعتضد بن عباد في اليوم الذي أعده للشعراء، وكان الشعراء لا يعرفونه، ويظنونه لا يجيد الشعر، فاتفقوا على تقديمه، فأنشده قصيدته الفائقة التي يقول في مطلعها:

قطعت يا يوم النوى أكبادي ونفيت عن عيني لذيذ رقادي

فلما انتهى منها، قال له: قد وليتك رياسة الشعراء، ولم يسمع من غيره في ذلك اليوم. وهذه القصيدة يقول فيها:

إن القريض لكاسدٌ في أرضنا وله هنا سوقٌ بغير كساد

وروي: أن عبد المؤمن بن علي مدحه أبو العباس التيفاشي بقصيدته، التي قال في أولها:

ما هزَّ عطفه بين البيض والأسلٍ مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

فأشار عليه أن يقتصر على هذا البيت؛ لأنه يغني عن بقية القصيدة.

فالشعر الجيد له يد في الدعوة إلى سبيل الحق، والأخلاق الفاضلة؛ كشعر حسان بن ثابت في صدر الإسلام ومن بعده، وإلى هذا يشير أبو تمام بقوله¹:

ولولا خلال سنّها الشعر ما درى بغاة العلامن أين تؤتى المكارم

¹ - محمد الخضر حسين: الخيال في الشعر العربي، ودراسات أدبية (موسوعة الأعمال الكاملة)، 7: ص 88

مكمن مشكلة العلماء مع الشعر:

لقد تنبّه الشيخ الخضر للمشكلة التي تقف أمام العلماء عند قول الشعر حينما كان يترجم لشخصية عالم التاريخ، وعلم الاجتماع العلامة عبد الرحمن بن خلدون، وقد نقل إلينا محاوره بينه وبين صديقه الشاعر الأندلسي لسان الدين بن الخطيب، يشكو فيها استصعاب قول الشعر، بسبب ما كان يزاحم ذاكرته من العلوم، ومحفوظاته لمتون العلم الشعرية. يقول ابن خلدون:

"ذكرت -يوما - صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب - وزير الملوك في الأندلس من بني الأحمر - وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة -، فقلت له: أجد استصعابا عليّ في نظم الشعر متى رمته، مع بصري به، وحفظي للجيد من الكلام، من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب، وإن كان محفوظي قليلا، وإنما أتيت - والله أعلم - من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية، والقوانين التأليفية، وعدّد جملة من محفوظاته.. وامتلاّ حفظي من ذلك، وחדش وجه الملكة التي استعددت لها بال محفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب، فعاق القريحة عن بلوغها".

فنظر إليّ ساعة معجبا، ثم قال: لله أنت! وهل يقول هذا إلاّ مثلك!"¹.

لقد أجاب ابن خلدون بنفسه على ما يشكوه من عجز في قول الشعر، وذلك أن ملكة الشعر قد خدشتها تلك المعارف العلمية الجافة، والتي تتنافى مع طبع الإنسان العاطفي المحب لسمع كلّ جميل وعذب من الكلام. وقد وافق الشيخ الخضر ما ذهب إليه ابن خلدون، مثل موافقه لسان الدين بن الخطيب الضمنية حين أجابه بقوله: " لله أنت! وهل يقول هذا إلاّ مثلك!".

¹ - محمد الخضر حسين: حياة ابن خلدون، 11: ص80.



الفصل الثاني

مظاهر "شعر العلماء" في

تراجم محمد الخضر حسين

المبحث الأول: تراجم الأدباء الشعراء عند الخضر حسين

مفهوم تراجم الأعلام:

ارتبطت تراجم الأعلام بعلم التاريخ؛ كونها تتناول الشخصيات التي صنعت التاريخ؛ فهي الحاكمة للدول، والمسيرة للمالك، والمحدثه للتغيير التاريخي. فأصبحت هذه التراجم - معها - جزءاً في دراسة علم التاريخ؛ لارتباط الإنسان بالزمن التاريخي، ومن ثم أصبح أدب التراجم مادة لها أهميتها في استكمال علم التاريخ؛ كونها تستمد مادتها منه.

وقد يضاف إلى هذه المادة التاريخية تلك "المواقف الإنسانية الكبرى، التي تطفو على واقع الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية عند الأفراد والأمم، حيث تعتمده لتخليد رجالها وأبطالها، متخذة أشكالاً تتراوح بين التسجيل الشفهي، حين تحفظها الذاكرة الشعبية في مروياتها وقصصها، وسائر أخبارها، أو التسجيل المادي؛ بالنحت والنقش، والرسم والكتابة على شواهد الأضرحة والقبور، وجدران المعابد والقصور. ومن هنا، فقد احتلت تراجم الأعلام في تاريخ الأدب الإنساني موقعا لافتا، احتفت بتخليد أسماء الأعلام الكبيرة من: الملوك والأمراء، والساسة والقادة، والفلاسفة والمفكرين، والعلماء والأدباء.. وغيرهم ممن أخذ مكانا له تحت الشمس، فاستوجب أن يحظى بنصيب من عناية المؤرخين وكتاب التراجم والسير"¹.

لقد عرف تراثنا العربي هذا النوع من أدب التراجم حين ترجم لمشاهير الناس على أساس طبقي، حيث ألف العرب كثيرا من كتب الطبقات (طبقة القضاة، طبقة الفقهاء، طبقة رواة الحديث، طبقة المتصوفة، طبقة العلماء، طبقة اللغويين، طبقة الأدباء، طبقة الشعراء..)، بل تجاوزتها إلى سائر الطبقات التي تجسد علما أو فنا، أو حرفة، أو سلوكا أو صفة..

وهناك نوع من الترجمة قد يسمى الترجمة الشخصية، وهذا النوع "يكاد يتقاطع مع كتابة "السيرة الذاتية" لدرجة الالتباس، حين يتولى عالم أو أديب الكتابة عن مرحلة من مراحل حياته - قصيرة أو طويلة - أو يلتفت إلى محطات متفرقة مهمة في حياته، يحرص أن يطلع عليها الناس، بمثل ما فعل أسامة بن منقذ (ت. 584هـ)، في كتابه "الاعتبار".. حين ترجم لرجال القرن السادس والسابع الهجريين، وفيه ترجم لنفسه ترجمة وافية، متحدثا عن نفسه بضمير الغائب"².

¹ - أبو بكر مرزوق: محاضرات في الخطاب النثري القديم (عصر الضعف). مطبوع خاص بطلبة السنة الأولى (ماستر أدب قديم)، وفق مفردات المقرر الوزاري المعتمد، جامعة الأغواط - الجزائر، (2018-2019).

² - أبو بكر مرزوق: محاضرات في الخطاب النثري القديم. ينظر محور التراجم والسير.

طريقة الترجمة للأعلام:

أما طريقة الترجمة للأشخاص، فإن الترجمة تتناول حياة الأعيان بصورة قد تطوّل وقد تقصّر، أو قد يُعمّق فيها أو يتخفّف، تبعاً لثقافة المترجم، وقدرته على النفاذ إلى حياة الشخصية المترجم لها استقصاءً، وتحليلاً، ووصفاً وتمثيلاً، دون أن يُغفل الموقف الذاتي، والرؤية الخاصة في أثناء الترجمة، ومع مراعاة مقتضيات العصر الذي تحكم أو تتحكّم في المترجم أو المترجم له. على أنّ أبرز المحددات في كتابة الترجمة تكمن في طبيعة المنهج الملتمزم به في جانب المحتوى (منهج تقريرى تاريخي - منهج تحليلي نفسي - منهج تصويري فني..)، وما يستلزمه من طبيعة الأسلوب الكتابي في جانب الشكل (تأريخي إخباري - علمي تقريرى - فني سردي).

ولعلّ أبرز سمة أسلوبية نصادفها في أدب التراجم هي سمة "الإخبارية"، التي تمثل السمة "التقريرية" المشتركة بين: "التأريخ" و"كتابة التراجم"، في حدودهما الدنيا، إلى جانب سمة "السردية"، التي تمثل السمة الفنية المشتركة بين "القصّ"، و"الترجمة" في حدودهما القصوى. وقد تتماهى "الترجمة الذاتية"، من حيث "الموقف"، مع "القصة القصيرة"، مثلما تتماهى "السيرة الذاتية" مع "الرواية"، من حيث "الرؤية"¹.

تجربة الترجمة للأعلام عن الشيخ الخضر حسين:

حفل تراث الشيخ الخضر حسين بأنواع من كتب التراجم والسير، منها ما سار على طريقة كتاب السيرة النبوية مثل ما نجده في كتاب "محمد رسول الله، وخاتم النبيين" [مجلد: 3]، ومنها ما سار على طريقة كتاب التراجم في التراث القديم، مثل كتاب "تراجم الرجال" [مجلد: 3]، ومنها ما سار على نظام الطبقات، مثل بعض التراجم في كتاب "تونس وجامع الزيتونة" [مجلد: 11]، التي ارتبطت بعلماء جامع الزيتونة. وقد تأخذ الترجمة شكل الترجمة الشخصية مثل ما فعل الشيخ الخضر مع ترجمة عبد الرحمن بن خلدون "حياة ابن خلدون ومُثُلٌ من فلسفته الاجتماعية" [مجلد: 11].

وقد خاض الشيخ الخضر تجربة الترجمة للأعلام، منطلقاً من الترجمة المستفيضة للرسول ((صلى الله عليه وسلم))، مما يدخلها في باب السيرة النبوية، كما ترجم للصحابة الأجلاء، ولرجال الإسلام من القادة والعلماء وأهل الورع.

ولم يفت الشيخ الخضر أن يترجم للشعراء على طريقة أصحاب التراجم الشعرية كابن قتيبة وأبي الفرج الأصفهاني، وسوف نتخذ مثالا لهذه التراجم الأدبية الخالصة ترجمة حسان بن ثابت، حتى نقابلها بتراجم العلماء المتأدّبين

¹ - ينظر: أبو بكر مرزوق: محاضرات في الخطاب النثري القديم. محور التراجم والسير.

أنموذج لتراجم الشعراء الخُلص: (نظرة في شعر حسان بن ثابت)

حسان بن ثابت، قضى شطراً من عمره في الجاهلية، وشطراً في الإسلام، وكان آباؤه من ذوي الشرف والوجاهة في الجاهلية، فنشأ في المدينة، وكان للشعر في ذلك العهد نهضة راقية، ففي ذلك العهد ظهر شعراء مبدعون، مثل علقمة وزهير والنابعة والأعشى وقيس بن الخطيم، وكان لهؤلاء المبدعين ميدان يتبارون فيه، هو سوق عكاظ، فكلّ من في قريحته استعداد لصنع الشعر، كحسان بن ثابت، يجد في هذه النهضة باعثاً على أن يقول الشعر، وينافس في مضماره بأقصى ما يستطيع.

ويزيد حسان مُهَيَّبٌ هو أنه نشأ في بيت أصيل في صناعة الشعر، فقد كان أبوه ثابت وجدّه المنذر معدودين في قبيل الشعراء.

سمو مكانة حسان في الشعر:

في الشعراء من يتأني في نظم الشعر ولا يخرج للناس إلا بعد أن يباليغ في تنقيحه، كالحطيئة فيما يقال، ويسمى هذا النوع من الشعر بالمصنوع، ومنهم من يقوله ويسمعه الناس على ما تجود به القرحة لأول مرة، كحسان بن ثابت، ويسمى هذا النوع من الشعر بالمطبوع، وكان الأصمعي يعيب الحطيئة، وقال: وجدت شعره كله جيداً، فدلّني على أنه كان يصنعه، وليس هكذا الشاعر المطبوع، إنما الشاعر المطبوع الذي يرمي بالكلام على عواهنه جيّده على رديه. ولعلهم يريدون من الردي الأبيات التي تكون في مرتبة دون مرتبة الإبداع، فإن اشتمال شعر الرجل الذي عرف بالبراعة على أبيات في مرتبة متوسطة، يدل على أنه لا يباليغ في تهذيب شعره، بل يلقيه على نحو ما تسمح به قريحته¹.

ومن شواهد أن حسان لم يكن يتأني ويتكلف للشعر، وما يروى من أنه قد يقول الشعر في المجلس الذي وجد فيه الباعث على الشعر، كقصته مع وفد تميم إذ جاؤوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنشد أحد شعرائهم الزبير بن بدر أبياتاً يفخر فيها بقومه، فأجابه حسان في المجلس بالقصيدة التي يقول في مطلعها:

إن الذوائب من فهِرٍ وأحوثهم قد بيّتوا سنّة للناس تُتبع .

والأصمعي الذي عاب الحطيئة بالتصنع في الشعر، شهد لحسان بسمو المكانة في الشعر، وقال: حسان بن ثابت أحد فحول الشعراء.

وقال ابن رشيق في كتاب العمدة: وأشعر أهل المدر بإجماع واتفاق من الناس حسان بن ثابت، ثم قال: وقوم يرون تقدمه الشعر لليمن، في الجاهلية بامرئ القيس وفي الإسلام بحسان بن ثابت².

¹- محمد الخضر حسين: الخيال في الشعر العربي ودراسات أدبية (ضمن موسوعة الأعمال الكاملة)، 7: ص 129 - 140.

²- المرجع نفسه، ص 130.

كان عمر بن الخطاب يرجع في القضايا التي تتعلق بالشعر إلى حسان، استعداداً رهط تميم على الشاعر المعروف بالنجاشي لما هجاهم، فألقى النظر في أمرهم إلى حسان ونقذ عمر ما حكم به حسان، وكذلك في هجاء الحطيئة للزبرقان بن بدر، فقد أخذ رأي حسان في أن ما قاله الحطيئة هجاء، وأودعه السجن.

ويوجد فيما ينسب إلى حسان من الشعر شيء كثير فيه ضعف، وبعض علماء الأدب ينفي أن يكون هذا الشعر الضعيف من صنع حسان، مثل الأصمعي، فإنه لما جعل حسان في مرتبة فحول الشعراء، قال له أبو حاتم: تأتي له أشعار لينة، قال الأصمعي: تنسب إليه أشياء لا تصح عنه.

والواقع أن حسان لا يقل في صناعة الشعر عن النابغة وزهير وأمثالهم، بل عدّه ابن خلدون في الطبقة التي تفوق هؤلاء الجاهلين، من جهة أنهم سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث، فارتقت ملكاتهم، وكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقاً.

فلحسان أشعار تضاهي في براعة الصنع وجودة التصرف أرقى شعر يقوله زهير وعلقمة أو النابغة، وله أشعار تضاهي ما يُعدُّ في المرتبة المتوسطة من أشعار أولئك الفحول، وأرى أن أكثر هذا الشعر الضعيف الذي ينسب إليه ليس من صنعه، فإن الشاعر الفحل قد يضعف في الأبيات القليلة من القصيدة، وإذا تناول في شعره بعض المعاني المبتذلة، فإنه لا ينزل عن براعة الأسلوب ومتانة نسج الألفاظ إلا قليلاً.

الفخر في شعر حسان

تهيأت لحسان في الجاهلية أسباب البراعة في الفخر، فقد نشأ في بيت عريق في الشرف والتفاخر بالأنساب وخصال الشرف مما أولع بها العرب، ويضاف إلى هذا أن الخزرج الذين هم قوم حسان كانت بينهم وبين الأوس حروب ووقائع، ثم جاء الإسلام وقامت الحروب بين المسلمين والمشركين، والحروب تستدعي من الشاعر أن يجول في الفخر والحماسة جولات واسعة، فكان من فنون شعر حسان الفخر والحماسة.

يفخر حسان بالكرم والسخاء كما قال:

وإن أكُ ذا مال قليلٍ أجد به وإن يقتصر عودي على الجهدِ.

وقال:

وإني لمعطٍ ما وجدت وقائلٍ لموقد ناري ليلة الريح أوقدي .
 ويفخر برعاية حق الجار، كما قال:

فما أحدٌ منا بمهدٍ لجاره

لأننا نرى حق الجوار أمانة ويحفظه منا الكرمُ المعاهد¹

¹- المرجع السابق، ص 131-132

ويفخر بالصبر على الشدائد، كما قال:

فلا مالٌ ينسي حياي وعفتي . ولا واقعاتُ الدهر يفللن مبردي

ويفخر بالعدل، كما قال:

فنحن ولاه الناس في كل موطنٍ . متى ما نقل في الناس قولاً نُصدّق

توفّق في أحكامنا حكماؤنا . إذا غيرهم في أمثلها لم نوفّق .

ويفخر بالبراعة في الشعر، كما قال:

لكل أناس ميسمٌ يعرفونه . وميسمنا فينا القوافي الأوابدُ

ويفخر بالعزم، كما قال:

ونحن إذا لم يبرم الناس أمرهم . نكون على أمر من الحق مبرم

ويفخر بالشجاعة، كما قال:

ويثربُ تعلم أنا بها . أسودُّ تنقُضُ ألبادهَا

نمز القنا في صدور الكمأة . حتى نكسر أعوادهَا

وجمع الفخر بالشجاعة والسخاء في بيت فقال:

لنا الجفناثُ الغرُّ يلمعن في الضحى . وأسيافنا يقطرن من نجدةِ دما

يفتخر حسان بالشجاعة ولكن بعض المؤرخين يقولون: كان يجبن، وإنما جهاده بشعره، وأنكر بعضهم أن يكون حسان جباناً، وقال: إنه كان يهاجي قريشاً، ويذكر مثالبهم، ولم يبلغنا أن أحداً عبّره بالجن، والفرار من الموت.

المديح في شعر حسان

تهيأت لحسان أسباب البراعة في المديح في الجاهلية، فقد كان يفد على آل جفنة بالشام، ويبسطون إليه أيديهم بالجوائز، حتى روي أنه كان يرحل إليهم عاماً بعد عام، ومن أشهر قصائده في مدحهم القصيدة التي يقول في أولها:

أسألت رسم الدار أم لم تسأل . بين الجوابي فالْبُضْعُ يبع فحومَ ل

ويقول:

لله دُرٌّ عصابةٌ نادمتهم . يوماً يجالُّ بق في الزمان الأول

يمشون في الحلل المضاعف نسجها مشي الجمال إلى الجمال البزّل
 الضاربون الكبش يبرق بيضه حزمًا يطيح له بنانُ المفصل
 والخالطون فقيرهم بغنيهم والمنعمون على الضعيف المرمّل
 أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفصل
 يغشون حتى ما تهّر كلابهم لا يسألون عن السواد المقلّل

وروي أنه تلا هذه القصيدة على عمر بن الحارث الغساني، وكان في المجلس علقمة والنابغة، فلم يزل عمر يزحف عن موضعه، حتى شاطر البيت، وهو يقول - مخاطباً علقمة والنابغة - : هذا وأبيك الشعر، لا ما تعللاني به منذ اليوم.

وقد وقع البيت ((يغشون حتى ما تهّر كلابهم)) من الحطيئة موقع الاعجاب فقال: أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حيث يقول:

يغشون حتى ما تهّر كلابهم لا يسألون عن السواد المقلّل .

وتهيأت لحسان أسباب المديح في الإسلام بعد الجاهلية، إذ رأى من كمال رسول الله ((صلى الله عليه وسلم))، وسمو مكانته ومكارم أخلاقه فوق ما كان يراه في الناس بدرجات لا تحصى، فكان إيمانه الصادق يدعوه إلى مديح النبي ((صلى الله عليه وسلم))، وأصحابه الكرام. ومن أبلغ ما روي له في مدح الحضرة النبوية قوله:

وأحسنُ منك لم ترَ قطُّ عيني وأكملُ منك لم تلد النساءُ
 خُلِقَت مبرءاً من كلِّ عيبٍ كأنك قد خُلِقَت كما تشاءُ

وقوله:

متى يبد في الليل البهيم جبينُهُ يلخ مثل مصباح الدجى المتوقد
 فمن كان أو من قد يكون كأحمدا نظاماً لحق أو نكالاً للملحد¹

الهجاء في شعر حسان

يعزى إلى حسان أشعار على أنه هجا بها في الجاهلية بعض الأشخاص أو بعض القبائل، وهجا حسان بعد دخوله الإسلام. وسبب هذا الهجاء أن رهطاً من المشركين كانوا يهجون النبي صلى الله عليه وسلم، فقال المهاجرون: يا رسول الله ألا تأمر علياً فيهجو هؤلاء القوم؟ فقال: أن القوم الذي نصرنا بأيديهم أحق أن ينصروا بألسنتهم، فقالت الأنصار: أئردنا والله، فأرسلوا إلى حسان فأقبل، وأذن له رسول الله صلى

¹ - موسوعة الأعمال الكاملة، الخيال الشعري عند العرب، ص 134.

الله عليه وسلم في هجائهم. ومن عرف ما كان للشعر له أثر كبير في الصد عن الدعوة، وصرف النفوس عن قبولها، فلا بد من مدافعة هذا الشعر الهجائي بشعر مثله يبطل أثره أو يخفف شره. وفي حديث عمار بن ياسر أن رسول صلى الله عليه وسلم قال: ((قولوا لهم يقولون لكم)) فهجاء حسان في الإسلام إنما كان دفاعاً لمن اتخذوا الهجاء طريقاً لمحاربة الدعوة إلى الحق، وكذلك قال حسان مخاطباً أبا سفيان ابن الحارث:

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجـزاء
فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم فداء

وكان حسان يهجو الأشخاص والقبائل بالبخل أو الجبن أو الغدر أو اللؤم، أو بنقص العقل أو الكفر والضلال. وينسب إليه أبيات فيها فحش وإقذاع، وليس من المحتمل أن تكون تلك الأبيات المقذعة التي يجتويها الديوان المنسوب إليه قد صدرت منه بعد دخوله الإسلام بل أراها مصنوعة ومنسوبة إليه بغير حق، فإن الإسلام طبع نفوس الصحابة على آداب رفيعة وسار بهم في سيرة نقية لو عرضنا عليها هذا الشعر المقذع رأيناها تدفعه؛ وحسان من الصحابة الذين تأدبوا بأدب القرآن ولازموا مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم سنن كثيرة.

ثم إن حسان يعني في فخره بمخلة النزاهة عن الفحش كما قال:

أبي فعلنا المعروف أن ننتطق الخنا وقائلنا بالعرف أن لا تكلمنا .
وقال في الفخر:
مساميخُ بالمعروفِ وسط رحالنا وشباننا بالفحش أبجل باخل .
ويمدح قومه:
إذا اختبطوا لم يفحشوا في أيديهم وليس على سؤلهم عندهم بخل .
وقال:

مقاويل بالمعروف خرس عن الخنا كرام معاطى للعشيرة سؤلها .

وليس من شك في أن تلك الأبيات المقذعة فحش ليس بعده فحش.

وإذا وجد بعض هذا الشعر المقذع في سيرة ابن إسحاق، فإن لدينا نصوصاً تجعلنا لا نتقبل ما يرويه ابن إسحاق في السيرة من الشعر إلا بتحفظ، فهذا ابن هشام قد يورد القصيدة منسوبة إلى من نسبها إليه إسحاق ويقول: وأهل العلم أو أكثر أهل العلم ينكرها لفلان: أي الذي نسبها إليه ابن إسحاق. إذن ابن إسحاق نسب في السيرة أشعاراً كثيرة لأناس ينكر أهل العلم أن تكون لهم، وهذا يساعدنا على إنكار أن يكون هذا الشعر المقذع قد صدر من حسان في عهد النبوة¹.

¹ - المرجع السابق، ص 135-136.

ونزيد على هذا أن من نقّاد الرجال من أنكر على ابن إسحاق هذا الشعر الذي يرويه. قال ابن معين في حق ابن إسحاق: ماله عندي ذنب إلا ما قد حشا في السيرة من الأشياء المنكرة والأشعار المكذوبة.

وهذا ابن سلام الجمحي يقول في كتاب الشعر والشعراء: شعراء المدينة الفحول خمسة وأشعرهم حسان، وقد حمل عليه ما لم يحمل على غيره، لما تباغضت قريش واستبت، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تليق به.

وأريد من هذا أن ما ينسب إلى حسان من الشعر، ننظر فيه من جهة ما يعير عنه المعاني، فإن وجدناه يلائم روح عهد النبوة، وما عرف به الصحابة من نزاهة وفضل قبلناه ورويناه على أنه شعر حسان، إن وجدناه ينافي روح ذلك العهد أنكرناه ولا سيما شعراً لم يرد منسوباً إلى حسان بسند متصل صحيح.

النسيب في شعر حسان

يذهب حسان في النسيب مذهب الشعراء من قبله، فيذكر الشوق والسهر وطول الليل، ويكثر من ذكر الديار وأطلالها، والرحيل وما يحدثه من روعات وحسرات، ويسوق نسيبه في نزاهة معنى وجزالة نظم، ومثل هذا قوله:

تطاوَلْ بالخِمانِ ليلي فلم تكن	تَهْم هُوادي نَجْمه أن تصوبا
أبيت أراعيها كأني موكَّل	بها لا أريد النوم حتى تغيبا
إذا غار منها كوكبٌ بعد كوكبٍ	تراقبُ عيني آخرَ الليلِ كوكبا
غوائر تترى من نجوم تحالها	مع الصبح تتلوها زواحف لُعبا
أخاف مفاجأة الفراق بيغته	وصرف النوى من أن تشب وتشعبا
وأيقنت لما قوَّض الحيَّ خيمهم	بروعات بَيْنِ تترك الرأس أشيبا

يصدر حسان المدح أو الفخر بالنسيب، بل قد يصدر المهجاة بذكر البين والرحيل والبكاء، وكثيراً ما يخرج من النسيب إلى غيره من الفنون بقوله: ((دع ذا)) أو نحوه، كما نرى هذا في شعر هاجي به قيس بن الخطيم إذ قال في أوائله:

ما كنت أدري بوشك بينهم	حتى رأيت الحدوج قد عزفوا
فغادروني والنفس غالبها	ما شفقها والهموم تعتكف
دع ذا وعد القريض في نفر	يرجون مدحي ومدحي الشرف

والقصيدة التي افتتح بها ديوان حسان الذي بأيدينا، قصيدة هاجي بها أبا سفيان ابن الحارث، وهي مصدرة بنحو عشرة أبيات من النسيب وأولها:

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء
وقال بعد العشرة الأبيات متخلصاً إلى مخاطبة قريش وأبي سفيان بن الحارث:

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء
ييارين الأعنة مصعداتٍ عن أكتافها الأسل الظماء
تظل جياذنا متمطراتٍ تظمنهن بالخمر النساء

ونقل عن حسان أن أبيات النسب من هذه القصيدة قالها في زمن الجاهلية، ثم وضعها في أول هذه
المهاجاة بعد الإسلام، ومن نظر في تلك الأبيات وجد عليها طابع شعر حسان في الجاهلية.
الحكمة في شعر حسان

من فنون الشعر التي برع فيها حسان إرسال الحكم البالغة، ومن هذا الباب قوله فيمن يوثق بصحبته
من الإخوان:

أخلاء الرخاء هم كثيرٌ ولكن في البلاء هم قليلٌ
فلا يغرك خلة من توأخي فمالك عند نائبة خليلٍ
وكلُّ أخٍ يقول أنا وفي ولكن ليس يفعل ما يقول
سوى حلٍ له حسَبٌ ودين فذاك لما يقول هو الفعول
وقال مشيراً إلى الشباب محفوف بالأهواء، وناصحاً بعدم إطاعته في كل أمر:

إنَّ شرخ الشباب والشعر الأسد
ود ما لم يعاص كان جنونا

وقال يحذر من عاقبة اتخاذ وسائل الكيد للنفوس المقبلة على شأنها:

وكم حافرٍ حفرةً لامرئٍ سيصرعه البغي فيما احتفر

وقد تؤخذ الحكمة مما يقوله في الفخر كقوله في بذل المال صيانة للعرض:

أصون عرضي بمالي لا أدنسه لا بارك الله بعد العرض في المال

أحتال للمال إن أودى فأجمعه ولست للعرض إن أودى بمحتال

وربما أخذت الحكمة مما يقوله في المهاجاة، كقول مشيراً إلى عاقبة الجبن والهرب من مواقع الدفاع ذل وهوان:

كرهوا الموت فاستبيح حماهم وأقاموا فعل اللئيم الذليل

أمن الموت يهربون فإن الـ موت موتٌ النذال غير جميل

ومما يدخل في قبيل الحكمة، يدل على جودة تخيله لاصطيادها، قوله يصف القول المزخرف للغرور به:

إني لأعجب من قول غررت به حلو يمد إليه السمع والبصر
لو تسمع العصم من شم الجبال به ظلت من الراسيات العصم تنحدر .
وكالسراب شبيهاً بالغدير وإن تبغ السراب فلا عين ولا أثر
لا ينبت العشب عن برق وراعدة غرّاء ليس له سبيل ولا مطر

وخلاصة البحث: أن الشعر الذي تنسبه الرواية إلى حسان، ويوافق الرواية فيه النقد والفكر، هو شعر بالغ في براعة النظم، وجمود صياغة المعاني المرتبة التي هي أقصى ما بلغه الشعراء في الجاهلية وصدر الإسلام¹.

¹- محمد الخضر حسين: الخيال في الشعر العربي ودراسات أدبية (ضمن موسوعة الأعمال الكاملة)، 7: ص 137 - 138 - 139-140.

المبحث الثاني: تراجم العلماء الشعراء عند الخضر حسين

سقنا أنموذجا لطريقة الشيخ محمد الخضر حسين في الترجمة لشعراء خلّص فحول، تمثّل في شخصية حسان بن ثابت، وندرك من هذا الاختيار توجه الشيخ الخضر الديني في مختاراته الترجيحية، حينما اختار رمزا من رموز الدعوة الإسلامية في العهد النبوي، ألا وهو شاعر الرسول ((صلى الله عليه وسلم))، واختار المهذب من أشعاره، لبيّن قيمة شعره.

ولا يكاد يخرج الشيخ الخضر عن هذا النهج الديني حين يتعرّض بالترجمة لعلماء قضاة وفقهاء، نظموا شعرا حسنا، اقتربوا به من شعراء حقيقيين أمثال القاضي (أبي الحسن الجرجاني)، وعالم التاريخ وعلم الاجتماع (عبد الرحمن بن خلدون)، ولم يكتف بالعلماء القدامى، بل راح يقدم نماذج لعلماء من العصر الحديث، وقد اختارهم من بلاد المغرب العربي وتحديدًا من تونس، من أمثال الشيخ (محمود قبادو)، والشيخ (محمد الطاهر بن عاشور)، وسوف نقف مع هؤلاء بشيء من التفصيل.

أولاً: نماذج علماء شعراء من العصر القديم

يحاول الشيخ الخضر رصد بعض الأدباء العلماء الذين ازدهت بهم تونس منذ القرن الثالث الهجري، فكان من بين أولئك الأدباء علماء تعلقوا - بعد العلم - بصناعة الشعر، مثل (عيسى بن مسكين)؛ الذي كان معدودا في زمرة الفقهاء الأدباء.

ومن شعره، قوله - أسفا على عهد الشباب-¹:

لَعَمْرِي، يَا شِبَابِي لَوْ وَجَدْتُكَ بِمَا مَلَكَتْ يَمِينِي لَارْتَجَعْتُكَ
وَلَوْ جُعِلَتْ لِي الدُّنْيَا نُؤَابًا بِمَا فِيهَا عَلَيَّكَ لَمَّا وَهَبْتُكَ

ومن العلماء الأدباء، يذكر الشيخ الخضر الشيخ (محمد زيتونة)، والشيخ (محمد الخضراوي)، والشيخ (حمودة فتاة)، نجم الدين المعروف بـ (ابن سعيد)، صاحب حواشي "شرح الخيصي للتهذيب"، وحواشي "شرح الأشموني للخلاصة"، ومنهم: (الغراب الصفاقسي)، و(محمد الورغي). ويشير الشيخ الخضر إلى أنّ للأدب، في القرن السابع الهجري، سوق نافقة، وقد وجد في أشعار أهل العلم جزالة وإحكام نسج².

ويذكر الشيخ الخضر للشيخ (ابن سعيد) قوله - يشكو حساده -³:

¹ - محمد الخضر حسين: تونس وجامع الزيتونة (ضمن موسوعة أعمال الكاملة)، 11. ص 15

² - محمد الخضر حسين: تونس وجامع الزيتونة، 11. ص 18

³ - محمد الخضر حسين: تونس وجامع الزيتونة، 11. ص 27.

ومالي ذنب عندهم غير أنني
وإن خضت في بحر من العلم لجّ بي
خليلي هل يجني على المرء مجده
إذا شئت قلت الشعر، وهو رقيق
تطائر درّ فوقه وعقيق
فإني بالمجد العريق حريق

ويذكر الشيخ الخضر من شعر الشيخ (حمودة بن عبد العزيز)، يتحدث عن الحرب¹:

فلا - وأي - لا يبلغ المجد عاجز .
ولكن فتى قد جرّد السيف طالبا
يهاب الدنيا أن تدّس عرضه
هي الحرب من يعلق بها، بلغ المنى
يعلّل نفسا بالأمان الكواذب
به من حقوق الحمد أسنى المطالب .
وليس لأسباب المنايا بهائب
وهل نال أقصى المجد غير المحارب

ترجمة القاضي (أبي الحسن الجرجاني)

عرض الشيخ الخضر لعالم شاعر من أعيان القرن الرابع الهجري، هو القاضي أبو الحسن علي بن علي بن عبد العزيز الجرجاني، فقال - مترجما له:

"نشأ أبو الحسن في "جرجان"، وتقلّب في البلاد للقاء كبار العلماء، والأخذ عنهم، فدخل "نيسابور"، وطاف العراق، والشام، وغيرها، وأحرز في العلوم والآداب منزلة يشار إليها بالبنان. قال مؤرخوه: "لم يزل أبو الحسن يتقدم حتى ذكر في الدنيا". ووصفه صاحب: "يتمية الدهر" فقال: "هو فرد الزمان، ونادرة الفلك، وإنسان حدقة العلم".

وبعد أن بلغ الذروة في العلم والآداب، عرّج على حضرة الصاحب بن عباد، فعرف قدره، وتمسك بصحبته، وكاد من شدة اختصاصه به لا يستطيع مفارقتة..

وكان الصاحب يتلقاه في "جرجان" بإقبال وإكرام أكثر مما يتلقاه في غيرها من البلاد، قال القاضي: "وقد استعفبه يوما من فرط تحفيه بي، وتواضعه لي، فأنشدني:

أكرم أخاك بأرض مولده
فالعزّ مظلّوب وملتمس
وأمدّه في فعلك الحسن
وأعزّه ما قيل في الوطن

ثم قال له: "فقد فرغت من هذا المعنى في قصيدتك "العينية". فقلت: "لعل مولانا يريد قولي:

وَشَيْدَتِ مجدي بين قومي، فلم
ألا ليت قومي يعلمون صنيعي

¹ - محمد الخضر حسين: تونس وجامع الزيتونة، 11: ص 27، 28.

قال: ما أردت غيره.

ويصفه المؤرخون، فنرى فيما يصفونه به خصالا تعدّ أصولا في مكارم الأخلاق، كصدق اللهجة، وعزّة النفس، وشرف الهمة. ومن شواهد هذا: أبياته المنقطعة النظير في تصوير الاعتزاز بالعلم، وسمو الهمة، وهي:

يقولون لي فيك انقباض وإنما رأوا رجالاً عن موقف الذل أحجما
وماكل برق لاح لي يستفزني ولا كل أهل الارض أرضاه منعما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما بدا طمع، صيرته لي سلماً
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لاقيت، لكن لأحدا
أشقى به غرساً، وأجنيه ذلّة إذًا: فاتّباع الجهل قد كان أحزما
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لِعَظَّمَا

وقد لهج بهذا المعنى في شعره، فقال من أبيات:

فإن لم يكن عند الزمان سوى أضيّق به ذرعا، فعندي له الصبر
وقال: "توصّل بالخضوع إلى الغنى" وما علموا أنّ الخضوع هو الفقر

وللقاضي ديوان شعر، وقد يعرج في شعره على الصاحب بن عباد، أو غيره من أقرانه، الذين كانوا يمنحونه الوداد، وينظرون إليه بعين الإجلال، فكان يخاطبهم بلسان الشعر، كالمجازاة على ما يلاقي من إسعادهم، وصدق مودتهم له..

ولم يكن القاضي بارعاً في صناعة الشعر فحسب، بل كان مبدعاً في النثر أيضاً، كما وصفه صاحب "يتيمة الدهر": "يجمع خط ابن مقلة، إلى نثر الجاحظ، ونظم البحري.

وجمع القاضي الجرجاني إلى غزارة العلم ذوقا سليما، ونقدا للشعر عادلا، وبسلامة الذوق والعدل في النقد، استطاع أن يخرج كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه" في صنع حكيم، ووضع بديع. وكان الصاحب بن عباد أَلْف رسالة في إظهار مساوئ المتنبي، فلم تمنع القاضي الجرجاني صداقته للصاحب أن يؤلف كتاب "الوساطة"، ويسلك فيه مسلك الإنصاف، فيرد كثيرا مما عدّه الصاحب، وغيره من سقطات المتنبي.

وإذا كان من المنتمين إلى قبيل العلماء من إذا أدرك شهادة أو منصبا أو وجاهة، قلّ إقباله على العلم، .. فإنّ القاضي الجرجاني من الطبقة التي تلدّ العلم، ونأنس للكتاب، وترى في ذلك غنيمة الحياة.. ولا يضرّ أمثال القاضي الجرجاني أن يقلل من لقاء الناس، ويؤثر أن يكون للبيت والكتاب جليسا، ما دام يجمل في يمينه قلما

يُستدرك به في القرايطيس ما ينفع الناس، ويمكث في الأرض؛ فقد حرّر بذلك القلم البارع مؤلفات غير كتاب "الوساطة"، منها: "تفسير القرآن المجيد"، وكتاب "تهذيب التاريخ".

عاش القاضي الجرجاني في عزة ووجاهة واستقامة، وتوفي سنة 366هـ، وهو قاضي القضاة بـ "الري"، وحمل تابوته إلى "جرجان" ودفن بها، جازاه الله عن إغرازه للعلم خير الجزاء.¹

ترجمة عبد الرحمن بن خلدون: (732هـ – 808هـ)

ويُقَرَّدُ الشيخ الخضر للعلامة التونسي (عبد الرحمن بن خلدون) كتابا مستقلا تناول فيه حياته، وساق أمثلة من فلسفته الاجتماعية. يذكر الشيخ الخضر أنه نشأ، "وكانت رياض العلم في مدينة تونس زاهية، وسوق الأدب نافقة، فاستظهر بالقرآن، وتلقى فن الأدب عن والده، ثم أقبل يجتني ثمار العلوم بشغف، ويتردد على مجالسة العلماء الراسخين...²

ثم يرحل إلى بسكرة زمن صاحبها يوسف بن مزني، ومنها يقصد بجاية، زمن السلطان المريني أبي عنان، الذي كان يحتل بجاية وتلمسان، وعند رجوع السلطان إلى فاس، استترق ابن خلدون معه، بعدما نال شهرة كبيرة، غير أنه رافقه مكرها، وعمل في ديوان التوقيعات.³

وفي هذه الأثناء كان حسّاد ابن خلدون يسعون للإفساد بينه وبين السلطان المريني، وأن يوغروا صدره عليه، فنجحوا في ذلك، ويغضب عليه، ويسجنه. وحاول ابن خلدون استعطافه بالشعر حتى عفا عنه، وهو في تلمسان، وموت السلطان دون أن يطلق سراحه، ليطلق بعد ذلك.

كانت تجربة السجن قاسية على ابن خلدون، لذلك نراه يغيّر مساره السياسي، ليتفرغ إلى العلم، ويتعرّف في أثناء ذلك إلى الشاعر الوزير (لسان الدين بن الخطيب)، الذي بادره بالمراسلة، من غرناطة.

ويعقب الشيخ الخضر عن هذه العلاقة بين الرجلين، وطبيعة التراسل بينهما، فيقول:

"وإذا كانت الرسائل مثالا لمنهج الرجلين في المحاورة ساعات اللقاء، فإنّ هذه المراسلة تنبئك أنّ المجالس التي كانت تعقد بين هذين الوزيرين الخطيرين، لم تكن مضمار علم وأدب فقط، بل كانت ممتعة بالنظر في الشؤون السياسية الداخلية والخارجية؛ فقد أتى ابن الخطيب في بعض هذه الرسائل على تفاصيل من أحوال الدولة بغرناطة، وألم فيها بأبناء عن دولة الإسبان في إشبيلية، وكذلك تجد ابن خلدون تعرض في الجواب عن تلك الكتب

¹⁻⁻ محمد الخضر حسين: تراجم الرجال (موسوعة الأعمال الكاملة)، المجلد الثالث، تراجم الرجال، 3: ص 106-110.

² - محمد الخضر حسين: حياة ابن خلدون، 11: ص 56، ص 57.

³ - المرجع نفسه، 11: ص 58.

لحوادث دول شتى: فنسّق فيها قسطاً من الحديث عن شؤون تونس والجزائر والمغرب الأقصى، والحجاز ومصر..¹.

وبقي ابن خلدون بعد سراحه من حبسه مستغرقاً في علمه إلى أن أرسله أبو حمو صاحب تلمسان إلى (الذواودة)، بـ "بسكرة"، ليقنعهم بالدخول تحت لوائه، فاستغل مروره بـ (أولاد عريف)، "فأنزلوه بقلعة أولاد سلامة، وأقام بينهم أربع سنين في جو هادئ، وبيئة لا تجيش فيها مراحل الحسد، ولا تنفث فيها الوشاية سماً ناقعاً، وفي هذه السنين، التي كانت مهبط السكينة وصفاء الفكر، وارتياح الضمير، شرع في تأليف "تاريخه" الفائق، ولذلك الحين، أتم في "مقدمته" على نسجها الحكيم، وتحقيقها البديع"².

ثم تآقت نفسه إلى تونس - مسقط رأسه - فراسل حاكمها أبا العباس، فرحب به واستعجل قدومها لمكانته العلمية، وعند وصوله، أهدى ابن خلدون إليه نسخة من كتابه (الجزء الذي أمّته) وذيلها بأبيات، منها قوله³:

لولا عنايتك التي أوليتني .	ما كنت أعنى بعدها بطروس
والله ما أبقت ممارسة النوى	مني سوى رسم أمرّ دريس
أحنى الزمان علي في الأدب	دارسته بمجامع ودروس
فسطا على فرعي ورق مأمني	واجتث من دوح النشاط
ورضاك رحمتي التي أعتدّها	تحيي مني نفسي وتذهب بوسي

يعلق الشيخ الخضر عن هذه الرحلة السيرية مع ابن خلدون، فيقول:

"يمكن للناظر فيما اقتبسناه من سيرة ابن خلدون أن يشهد له ببعض خصال سامية، كعلو الهمة، ورقة الحاشية، وقلة المبالاة باقتحام المضاعف والأخطار"⁴.

وعن مكانة ابن خلدون العلمية، يقول الشيخ الخضر:

"أنبتت المعاهد العلمية الإسلامية من فحول العلماء رجالاً لا تحيط بهم أقلام الحاسيين، ولكن الرجال الذين يتسمنون في العلم الذروة القصوى، وتنفجر قرائحهم بمدارك فائقة، فيخرجوها للناس في أسلوبها الحكيم، ليسوا بكثير، ومن هذه الطائفة العزيزة المثال: أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون.

¹ - محمد الخضر حسين، المرجع السابق، 11: ص 63، ص 64.

² - المرجع نفسه، 11: ص 68 - 73.

³ - المرجع نفسه، 11: ص 73.

⁴ - المرجع نفسه، 11: ص 74.

ويواصل الشيخ الخضر تمجيد ابن خلدون، فيقول:

"كان بعيد الشأو في العلوم الشرعية والعربية، خبيراً بالعلوم النظرية، ضليعاً في الفنون الأدبية، ويشهد له بالرسوخ في العلم: الكتب التي درسها، مثل: "تهذيب البرادعي" في الفقه، و"مختصر ابن الحاجب الأصلي والفرعي"، وكتاب "الموطأ"، و"صحيح مسلم"، وغيرهما من الأمهات في علم الحديث، وكتاب "التسهيل" لابن ملك في النحو. وأخذ العلوم العقلية والمنطق وسائر الفنون الحكيمة والتعليمية عن أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلبي.

وحسبك شاهداً على تقدّمه في هذه العلوم النقليّة والعقلية: مقدمة تاريخه التي أمتع فيها البحث عن حقائق هذه العلوم وفلسفتها على طرز لا يبتكره إلا من مارسها على بينة من أمرها، وتوغّل في أحشائها. وأضاف إلى ثقافة الفكر والتبريز في الفهم: قوة الحافظة؛ فكان يحفظ القرآن الكريم، والمعلقات، وديوان الحماسة، وشعر حبيب، وقطعة من شعر المتنبي، وسقط الزند، وطائفة من اشعار كتاب "الأغاني"، وغير ذلك¹.

أما شعر ابن خلدون، فيقول فيه الشيخ الخضر:

"يعد ابن خلدون في قبيل الشعراء المجيدين، ولكن انكباه على مدارس العلوم، وقلة غدوّ قريحته ورواحها في النظم، عاقه على أن يبلغ في إتقان نسجه، والإبداع في فنون التخيل مبلغ المشهود لهم بالتفوق في هذه الصناعة. وقد اعترف هو نفسه بما يجده من استصعاب الشعر عليه، وبُعد مأخذه منه عندما يحاول نظمه. قال في "مقدمة تاريخه":

"ذكرت - يوماً - صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب - وزير الملوك في الأندلس من بني الأحمر - وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة -، فقلت له: أجد استصعاباً عليّ في نظم الشعر متى رمته، مع بصري به، وحفظي للجيد من الكلام، من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب، وأن كان محفوظي قليلاً، وإنما أتيت - والله أعلم - من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية، والقوانين التأليفية، وعدّد جملة من محفوظاته.. وامتلاً حفظي من ذلك، وخذش وجه الملكة التي استعددت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب، فعاق القريحة عن بلوغها".

فنظر إليّ ساعة معجبا، ثم قال: لله أنت! وهل يقول هذا إلا مثلك!².

ويقف الشيخ معقبا على كلام ابن خلدون، فيقول:

"ولصفاء فطرته، وسلامة ذوقه، قد يدرك شعره - مع تلك العلة التي أومأ إليها - غاية بعيدة من الإجادة. ومن مثله الرائقة: قصيدته التي أنشدها سلطان المغرب ليلة الميلاذ النبوي عام 763هـ، وافتتحها بقوله³:

¹ - محمد الخضر حسين، المرجع السابق، 11: ص 75، ص 76.

² - المرجع نفسه، 11: ص 80.

³ - المرجع نفسه، 11: ص 80.

أسرفن في هجري وفي تعذيبي وأطلن موقف عبرتي ونحبي
وأبين يوم البين ساعة وقفة لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
ومنها¹:

يا سائق الأظعان تعتسف البلا وتواصل الإسآد بالتأويب
متجافيا عن رحل كلّ مذلل نشوان من أين، ومسّ لغوب
تتجاذب النفحات فضل ردايه في ملتقاها من صبا وجنوب
إن هام من ظمإ الصبابة صحبه نهلوا بمورد دمعه المسكوب
أو تعترض مسراهم سجف الدجى . صدعوا الدجى بغرامه المشبوب
هالاً عطفت صدورهن إلى التي فيها لبانة أعين وقلوب
فتأمّ من أكناف يثرب مأمنا يكفيك ما تخشاه من تثریب
حيث النبوة آيها مجلوّة تتلو من الآثار كلّ غريب

ومن أجود شعره، وأعلاه مطالعا في البلاغة: قوله من قصيدة يهنئ بها أبا حمو بعيد الفطر:

هذي الديار فحأيهنّ صباحا وقف المطايا بينهن طلاحا
لا تسأل الأطلال إن لم تروها عبرات عينك واكفا ممناحا
ولقد اخذن على جفونك مؤثقا ألا يرين مع البعاد شحاحا
إيه على الحي الجميع وربما طرب الفؤاد لذكرهم فارتاحا

ويذكر الشيخ الخضر موقف الحافظ بن حجر من شعر ابن خلدون، فيقول²:

"إنه لم يكن ماهرا في النظم، وكان يباليغ في كتمانته، مع أنه كان جيدا لنقد الشعر. وعدم مهارته في الشعر مسلم على معنى أنه لم يصل إلى درجة من أفرغوا جهدهم في هذه الصناعة، وأصبحوا لا ترى تراجمهم إلا في طبقات الشعراء".

وقد أريناك من شعره مثلا يشهد بأن له قوة شاعرية فطرية، وهو المثل الأعلى لشعر من انصرف بجمته إلى التصلع من العلوم النقلية والنظرية، ثم مدّ يده إلى الشعر على وجه التحلي بفن من فنون الأدب الجميلة³.

¹ - محمد الخضر حسين، المرجع السابق، 11: ص 81.

² - المرجع نفسه، 11: ص 81

³ - المرجع نفسه، 11: ص 82

ثانيا: نماذج علماء شعراء من العصر الحديث

محمود قبادو (1815- 1871)

يلتفت الشيخ الخضر إلى تونس القرن التاسع عشر الميلادي، فيتكلم عن الحياة المدنية النامية فيها، حيث "صارت في مقدمة الشعوب التي تيقظت لما تحتاج إليه من إصلاح، ومن شواهد هذا: قصائد المفتي المالكي الشيخ (محمود قبادو)، فإنّ قارئها يجد فيها تذكّرة وتنبئها على جانب من طرق الإصلاح، مثل قوله، في إحدى القصائد¹:

أرى الملك مثل الفلك تحت رئيسه	عويزا إلى الأعوان فيما يؤمّه
فذلك نويّ يعين بفعله	وأخر خرّيت قصاراه علمه
ومقصده جري السفين وحفظها	ليسلم كلّ أو ليعظم غنمه
أيركب هول البحر دون مقاوم	وفي طيّه حرب كما يؤذن اسمه
لذاك ترى ملك الفرنج مؤثلا	بعلم على الأيام يمتدّ يمه
ومملكة الإسلام يقلص ظلها	وينقص من أطرافها ما تضمّه
على أنّها أجدى وأبسط رقعة	وينقص من أطرافها ما تضمّه
وأعرق في منمى الحضارة	وأطول باع يقلق الهام دمه
ودوّخ مغزاهما الأقاليم سبعة	وتاخّمها من سد ياجوج ردمه

ويقول في الأمام الغربية²:

هم غرسوا دوح التمّدن فرعه الر	ياضي والعلم الطبيعيّ جذمه
أيجمل يا أهل الحفيظة أنّهم	ييزونا علما لنا كان فخمه

ويقول³:

لقد قتلوا دنيا الحياتين خيرة	فمن لم يساهمهم، فقد طاش سهمه
------------------------------	------------------------------

¹ - محمد الخضر حسين: تونس وجامع الزيتونة، 11: ص 30، ص 31.

² - المرجع نفسه، 11: ص 31.

³ - المرجع نفسه، 11: ص 32.

الشيخ محمد الطاهر بن عاشور:

للشيخ الخضر علاقة صداقة قديمة منذ أن كانا طالبين على مقاعد الدراسة في جامع الزيتونة. وحيث تلقيا العلم على يد مشاهير علمائها، في مختلف العلوم الشرعية واللغوية والأدبية، من أمثال الشيخ عمر بن الشيخ، والشيخ سالم بوحاجب، والشيخ محمد النجار. ثم يجدان نفسيهما جزءا من فريق التدريس في الزيتونة، وخارج الزيتونة مثل التدريس في المدرسة الخلدونية، ثم تسند إليهما وظائف شرعية وقضائية. فكان تكوينهما متشابها جدا لولا ميل الشيخ الخضر إلى العمل الصحفي، والنشاط السياسي، الذين حاول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور تجنّبهما، والتوجه لرسالة العلم والتعليم.

وعلى مقاعد الدراسة نسج ابن عاشور والخضر أواصر الأخوة والصداقة التي دامت ستين سنة (1317-1377 هـ) قال عنها هذا الأخير: "أما "الصداقة النادرة المثال"، ووصفها أيضا أنها "صداقة بلغت في صفاتها ومثانتها الغاية التي ليس بعدها غاية".

وكثيرا ما كان يشيد الشيخ الخضر حسين بصداقته للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ويعبر عن عمق حبه له في كل مناسبة جمعته به، أو ورد اسمه فيها. ومنها هذه الأبيات التي قالها الشيخ الخضر في الشيخ الطاهر بن عاشور، والتي تقل نبل عواطفه تجاهه:

أحببته ملء الفؤاد وإنما	أحببت من ملأ الوداد فؤاده
فظفرت منه بصاحب إن يدر ما	أشكوه جاني ما شكوت رقاده
ودريت منه كما درى مني فتى	عرف الوفاء نجاده ووهاده

ولقد بادل الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الشيخ الخضر هذه المشاعر النبيلة، وتواصل بالرسائل والقصائد منذ أن توجه الشيخ الخضر إلى بلاد الشام، فارا من حكم الإعدام الذي أصدر الاستعمار الفرنسي في حقّه، ثم إلى مصر، حين تولّى الشيخ الخضر مشيخة الأزهر الشريف.

ولعلّ هذه الرسالة الشعرية، التي أرسل بها الشيخ ابن عاشور للشيخ الخضر سنة 1331 هـ، لما كان الشيخ الخضر بدمشق، قد تكشف لنا هذه المشاعر النبيلة التي تجمع الرجلين:

كتب الشيخ ابن عاشور للشيخ الخضر يقول:

بعدتَ ونفسي في لقاك تصيدُ	فلم يغن عنها في الحنان قصيدُ
وخلفت ما بين الجوانح غصّة	لها بين أحشاء الضلوع وقودُ
وأضحت أمني القرب منك ضئيلة .	ومرّ الليالي ضعفها سيزيد

أتذكر إذ ودّعنا صبح ليلة يوج بها أنس لنا وبرود
 وهل كان ذا رمزا لتوديع أنسنا وهل بعد هذا البين سوف يعود
 أم تر هذا الدهر كيف تلاعبت أصابعه بالدرّ وهو نضيد
 إذ ذكروا للودّ شخصا حافظا تجلى لنا مرآك وهو بعيد
 إذا قيل من للعلم والفكر والتقوى دكرتك إيقاننا بأنك فريد
 فقل لليالي جدي من نظامنا فحسبك ما قد كان فهو شهيد

وذيل رسالته بقوله: "هذه كلمات جاشت بها النفس - الآن - عند إرادة الكتابة إليكم، فأبثها على علائها، وهي، وإن لم يكن لها رونق البلاغة والفصاحة، فإنّ الودّ والإخاء، والوجدان النفسي، يتفرق في أعماقها.

قد نقف قليلا عند هذه الاستدراك الذي ذيل به الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رسالته الشعري، والذي يكشف موقف ابن عاشور من شعره، وكأما أدرك أنّ ما قاله لا يراه يدخل في باب الشعر الرصين، وإنما جاء عفويا قريبا من الارتجال - مثل ما يعترف بها صاحبها - ومثل ما هو شعر المناسبات، والمجاملات الذي يعبر عن الأفكار أكثر من العواطف.

ولا يتعد الشيخ الخضر من هذه الملاحظات، إذ نجد هذا الحضور العفوي في أبياته، وميلها إلى سرد حقائق هي أقرب إلى التقرير النثري، خاصة في أواخر أبيات القصيدة التي سارع فيه الشيخ الخضر إلى الردّ على رسالة الشيخ ابن عاشور الشعرية السالفة الذكر، والتي كانت شوقا، وأعظم تأثرا، عندما راح يبثه حنينه إلى تونس، ويسترجع ذكرياته معه أيام طلب العلم، ويمجد نضال الشيخ الديني والعلمي. يقول الشيخ الخضر.

أينعم لي بال و أنت بعيد وأسلو بطيف والمنام شريد
 إذا أجمت ذكراك شوقي أخضلت - لعمري - بدمع المقلتين خدود
 بعدت وآماد الحياة كثيرة وللأمد الأسمى عليّ عهد
 بعدت بجثماني وروحي رهينة لديك وللودّ الصميم قيود
 عرفتك إذ زرت الوزير وقد حنا عليّ بإقبال وأنت شهيد
 فكان غروب الشمس فجر صداقة لها بين أحناء الضلوع خلود
 لقيت الوداد الدرّ في قلب ماجدٍ وأصدق من يصفى الوداد مجيد
 ألم ترم في الإصلاح عن قوس ناقد درى كيف يرعى طارف وتليد
 وقمت على الآداب تحمي قديمها مخافة أن يطغى عليه جديد
 أتذكر إذ كنا نباكر معهدا حميّا علم والسّقاة أسود

أتذكر إذ كنا قرنين عندما يحين صدور أو يحين ورود
فأين ليالينا وأسمارها التي تبلُّ بها عند الظمَاء كُبودُ
ليال قضيناها بتونس ليتها تعود وجيش الغاصبين طريد

و"إذ نقف مع الإمام الخضر، في هذه المختارات التراجيمية، فإننا نقف على تلك المحطات التي عاشها، وهو يعاصر رجالاً رأى فيهم المعلم والمرّي، والقُدوة والمثال، ورأى فيهم الأب، والأخ، والصدیق، وكلّها محطات تستأهل أن تخلدها الذاكرة الفردية، ويطمح بأن تخلدها الذاكرة الجماعية، فلا يجد الإمام حرجاً في أن يؤرخ لها اعترافاً بالفضل"¹، وإبرازاً لدور هؤلاء العلماء في نشر علمهم، وفي مشاركتهم في الحياة الأدبية بأشعارهم التي طبعتهم بطابعهم العلمي الخاص، دون أن تبخس ما حمله شعرهم من جمالية وفنية.

¹ - محمد الطاهر علاوي/ أبو بكر مرزوق: المختارات الخضرية، ص: 372، 373.



الخاتمة

خاتمة:

في الختام: هذا مبحث من المباحث التي ترتبط بتراث الشيخ محمد الخضر حسين الجزائري، الذي سطره الأستاذ المشرف (أبو بكر مرزوق) ضمن مشروعه الطموح حول هذه الشخصية المغمورة. وكان الأستاذ طرفا في هذا البحث، يشارك طالبه في رحلة هذا البحث. وقد توصلنا إلى النتائج الآتية:

- نحن مع شخصية عاملة مصلحة كانت ثمرة معلمين تاريخيين ثقافيين هما ((جامع الزيتونة)) و((الجامع الأزهر الشريف))، وقد خاض تجربة التربية والتعليم والإصلاح.
- كان الشيخ الخضر كثير الإنتاج؛ أَلَّف في الدين والتشريع، ونظر في بلاغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وكتب في التاريخ والسير والتراجم، وفي النحو والبلاغة واللغة والنقد واشتغل بالرحلات العلمية، وشارك في الدعوة إلى الله حيث كان شيخ الأزهر الأكبر، وساهم في الإصلاح الديني والاجتماعي وخاض في السياسة والفلسفة
- جمع الشيخ الخضر بين العلم والأدب، فكانت ثقافته الزيتونية والأزهرية تفرض عليه ارتداء جبة الدين والإصلاح، والخوض في العلوم الشرعية بينما حمله استعداده اللغوي والأدبي أن يخوض في العمل الإبداعي فيكتب الشعر الجميل كما يكتب النثر البديع، ويؤرخ للأدب ويترجم للأدباء. ويخوض تجربة النقد ويلازم كثيرا من قضاياها.
- تناول البحث زاوية من النقد الأدبي تمثلت في شعر العلماء وهو مبحث لم يكتب فيه كثيرا، ولعل اجتماع صفة العلم والأدب عند الشيخ الخضر كانت من أسباب تناوله لهذه الظاهرة والترجمة لبعض نماذجها قديما وحديثا. قد حاولنا تتبعها في تراثه العلمي والأدبي.
- حاول البحث الوقوف على موقف الشيخ الخضر من هذه المسألة والتي ناقش بعض مظاهرها في كتابه ((الخيال في الشعر العربي))، إلى جانب الترجمة لعلماء أدباء وأدباء علماء.
- دراسة خصائص أدب العلماء من حيث طبيعة اللغة والتصوير والتفكير، وقد كان الشيخ الخضر مخصوصا بهذه القضية أيضا، بوصفه العالم الأديب، والأديب العالم.

نسأل الله أن نكون قد وفقنا في إثارة هذا الموضوع (موضوع أدب العلماء)، راجين أن يجد مشروع الأستاذ المشرف طلبة يشاركونه لذة البحث الجاد والعمل المهادف خدمة للغة القرآن، وتمجيدها لتراثنا اللغوي والأدبي.



قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر الرئيسية:

1. محمد الخضر حسين: موسوعة الأعمال الكاملة، جمع: علي الرضا الحسيني المحامي، دار النوادر، سورية - لبنان - الكويت، ط.1، 2010.
2. تراجم الرجال المجلد الثالث، تراجم الرجال، المجلد الثالث.
3. الخيال في الشعر العربي، ودراسات أدبية المجلد السابع.
4. ديوان خواطر الحياة، المجلد السابع
5. نقض كتاب في الشعر الجاهلي لطله حسين)، المجلد الثامن.
6. تونس وجامع الزيتونة المجلد الحادي عشر.

المصادر الثانوية:

7. طباطبا (أبو الحسن بن طباطبا): عيار الشعر، تح: طه الحجازي ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية، القاهرة، 1956.

مصادر مترجمة:

8. أرسطو (ارسطو طاليس): كتاب فن الشعر، نقل: بشر متى بن يونس القنائي من السرياني إلى العربي، تحقيق: عبد الرحمان بدوي، دار النهضة المصرية، 1953.
9. أفلاطون (افلاطون بن أرسطون): جمهورية أفلاطون، نقله إلى العربية: حنا خباز، 1969.

المراجع العربية:

10. جوزو (مصطفى الجوزو) : نظريات الشعر عند العرب (الجاهلية والعصور الإسلامية)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، . ط.1، 1991.
11. حسين (طه حسين): في الشعر الجاهلي، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة (تونس)، 1997.
12. حاييل (الحسين الحاييل) : الخيال أداة للإبداع، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، ط.1، 1988.
13. سويسبي (محمد سويسبي): أدب العلماء في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس (البيروني وعمر الخيام)، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، 1977.
14. علاوي (محمد الطاهر علاوي/ أبو بكر مرزوق): المختارات الحَضْرِيَّة، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان - الجزائر، ط.1، 2013.
15. كَتُون (عبد الله كَتُون): أدب الفقهاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 2014.
16. مرزوق (أبو بكر مرزوق): محاضرات في الخطاب النثري القديم (عصر الضعف). مطبوع خاص بطلبة السنة الأولى (ماستر أدب قديم)، وفق مفردات المقرر الوزاري المعتمد، جامعة الأغواط - الجزائر، (2018-2019).

17. مرزوق (أبو بكر مرزوق/ محمد الطاهر علاوي): المختارات الخُصيرية، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان - الجزائر، ط.1، 2013.
18. هلال (محمد غنيمي هلال): النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة (د.ت).
الرسائل الجامعية:
19. رايسي (مباركة رايسي / سارة ميهوبي): "خواطر الحياة" لمحمد الخضر حسين الجزائري (قراءة موضوعاتية في الديوان)، مذكرة ليسانس، جامعة الأغواط - الجزائر (2011 - 2012).
20. قطاس (حبيب بن قطاس/ إبراهيم بن بريكة): تمثّل نظرية الخيال في شعر محمد الخضر حسين، رسالة ماستر، جامعة الأغواط، السنة الجامعية: 2014-2015.
21. يوسف (بشير يوسف): استراتيجية الحجاج عند محمد الخضر حسين الجزائري (من خلال كتابه: "نقض كتاب "في الشعر الجاهلي" لطفه حسين)، رسالة ماستر، جامعة الأغواط، السنة الجامعية: 2016-2017.



محتويات البحث

الصفحة	المحتوى
	بسملة
	إهداء
	شكر وعرافان
أ-ب	مقدمة
المدخل	
	الفصل الأول
	موقف الشيخ الخضر من شعر العلماء
09	1-النقد عند الشيخ محمد الخضر حسين
11	نموذج من نقوده
11	نقض كتاب الدكتور طه حسين (في الشعر الجاهلي).
13	الخيال في الشعر العربي
13	المعنى الحقيقي
13	المعنى التخيلي
14	المعنى التحضيري
14	التخييل الإبداعي
15	2-شعر العلماء عند الشيخ محمد الخضر حسين
15	شعر العلماء
17	موقف الشيخ الخضر من شعر العلماء
23	مكمن مشكلة العلماء مع الشعر
الفصل الثاني	
مظاهر شعر العلماء في شعر محمد الخضر حسين وتراجمه	
25	1-تراجم الأدباء الشعراء عند الخضر حسين
25	مفهوم تراجم الإعلام
26	طريقة الترجمة للإعلام
26	تجربة الترجمة للأعلام عن الشيخ الخضر حسين
27	أنموذج لتراجم الشعراء (نظرة في شعر حسان بن ثابت).
27	سمو مكانه حسان في الشعر
28	الفخر في شعر حسان
29	المديح في شعر حسان
30	الهجاء في شعر حسان

32	النسيب في شعر حسان
33	الحكمة في شعر حسان
35	2-تراجم العلماء الشعراء عند الخضر حسين
35	اولا: نماذج علماء شعراء من العصر القديم
36	ترجمه القاضي (أبي الحسن الجرجاني)
38	ترجمه عبدالرحمان بن خلدون(732هـ.808هـ)
42	ثانيا نماذج علماء شعراء من العصر الحديث
42	محمود قبادو(1815.1871)
43	الشيخ محمد الطاهر بن عاشور
47	خاتمة
49	قائمة المصادر والمراجع
52	فهرس محتويات البحث
55	ملخص البحث.

ملخص البحث

ملخص باللغة العربية

يتناول البحث موضوع أدب العلماء، حيث تتبع هذه الظاهرة في تراث الشيخ محمد الخضر حسين الجزائري، من خلال ترجمته لعلماء شعراء مثلوا هذه الظاهرة، واستعراض موقف الشيخ محمد الخضر منها بوصفه عالما أدبيا، وأديبا عالما.

الكلمات المفتاحية: محمد الخضر حسين - أدب العلماء - أدب التراجم - صناعة الشعر.

ملخص باللغة الأجنبية:

The recherché porte sur le sujet de la littérature savant, car ce phénomène est retracé dans l'héritage du cheikh muhammad al-khader hussein ak-jazaery , à travers sa traduction d'érudits de poètes qui ont représenté ce phénomène, et une revue e la position de cheikh muhammad al-khader à ce sujet en tant qu' érudit littéraire et érudit littéraire .

Les mots clés :

Muhammad al-khader hussain –chercheurs en littérature
traduction de littérature industrie capillaire.